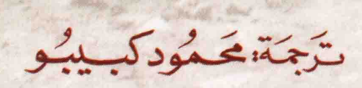
الطبعة الثانية

الدُّرُوز





ماكس أوبنهايم

ترجمة: محمود كبيبو


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد

الــدُّرُوز




مكتبة
الفكر الجديد

ماكس فان أوبنهايم



ترجمة

محمود كبيبو



* اسم الكتاب: الدروز.

* المؤلف: ماكس فون أوبنهايم.

* المترجم: محمود كبيبو.

* الطبعة الأولى لشركة دار الورّاق للنشر المحدودة - لندن: 2006. الثانية: 2009.

* تصميم الغلاف: جبران مصطفى.

* صورة الغلاف: من تصوير المؤلف.

* ملاحظة: هذا الكتاب هو قسم من كتاب «من البحر المتوسط الى الخليج».

* الناشر: شركة دار الورّاق للنشر المحدودة - لندن.

This book (Druze) is a chapter from

the Vom Mittelmeer Zum Persischen Golf (1-2). Berline 1899-1900

By Max Von Oppenheim

First edition in Arabic by Alwarrak Publishing Ltd. 2006

www.alwarrakbooks.com

ISBN: 1 900 700 32 8

التوزيع

Alwarrak Publishing Ltd.

26 Eastfields Road

London W3 0AD - UK

Fax: 0044 208-7232775

Tel: 0044 208-7232775

warraklondon@hotmail.com

الفرات للنشر والتوزيع

بيروت - الحمرا - بناية رسامني - طابق سفلي أول

ص. ب 113-6435 بيروت - لبنان

هاتف: 00961-1-750054

فاكس: 00961-1-750053

e-mail: info@alfurat.com

بيت الوراق للطباعة والنشر والتوزيع

بغداد - شارع المتنبي - تلفون: ٠٠٩٦٤٧٧٠٢٧٤٩٧٩٢ - ٠٠٩٦٤٧٨٠١٣٤٧٠٧٦



الفهرس

تصدير 5

الدروز وتاريخهم 9

عبر جبال حوران (جبل الدروز) 135

فهرس الأماكن 177

فهرس الأعلام 182




مكتبة
الفكر الجديد

تصدير

هذا الكتاب هو جزء من السفر الثاني لأوبنهايم الذي سوف تقوم شركتنا بإصداره قريباً، فقد سبق أن أصدرت شركتنا موسوعة البدو بمجلدات خمسة. واليوم نعمل على إصدار السفر الثاني «من البحر المتوسط إلى الخليج».

الكتاب دراسة علمية ميدانية بحثية قام بها المستشرق والأنثربولوجي والآثاري الألماني البارون أوبنهايم بين عام 1893 و1894. صدرت هذه الدراسة بجزأين تحت عنوان من البحر المتوسط إلى الخليج عام 1899 و1900، ونظراً لأهميتها الفائقة فقد قامت الحكومة البريطانية بترجمتها إلى اللغة الإنكليزية وتوزيعها على ضباط الاستخبارات البريطانية الذين شاركوا باحتلال المنطقة العربية في الحرب العالمية الأولى.

الجزء الأول من الكتاب تناول سورية ولبنان حيث قدّم لنا أوبنهايم دراسات مهمة تاريخية وسياسية عن الأقليات الدينية



والمذهبية والعراقية وكذلك عن القبائل والعشائر في هذه المنطقة، أما الجزء الثاني فتناول العراق والجزيرة العربية إلى مسقط.

لقد قامت شركتنا بإصدار هذا القسم من الكتاب الذي يتناول فيه الدروز بشكل منفصل، نظراً للأهمية التاريخية الكبيرة التي قام بها الدروز في لبنان وسورية وكذلك لكون الديانة الدرزية ديانة سرّيّة ونتيجة لذلك نشأت حكايات كثيرة حول هذا المذهب (الدين) ومعتنقيه، اتهم فيها الدروز من قبل جيرانهم وأعدائهم ببعض التهم.

يقول المؤلف: يعود أصل الدروز الحالي إلى أجزاء من قبائل عربية جاءت في القرن الثاني الهجري إلى لبنان الذي كان آنذاك آرامياً مسيحياً وانضمت إليهم فيما بعد بعض العناصر التركية والكردية ولكن هؤلاء امتصهم العنصر العربي الغالب.

الناشر



الدروز وتاريخهم

فكرة عامة عن الديانة الدرزية والشعب الدرزي. ـ المنشأ العرقي ـ المصادر ـ أقوال شفهية لدرزي مثقف كمصدر للعرض التالي. ـ دخول الحيريين من عرب الجنوب بقيادة الأمير عون إلى سورية. ـ الأمير أرسلان يقود قومه إلى لبنان، إلى منطقة المردة. ـ هجرات عربية أخرى ـ. تنوخ، علم الدين، معن. ـ مجيء جماعات غير عربية. ـ جنبلاط، عماد، نكد. ـ شجرة نسب آل أرسلان. ـ عدم تحديد خليفة للنبي محمد كسبب في تفكك دولته. ـ حروب الأمويين والعباسيين. ـ مكانة الفرس. ـ تشكل الطوائف في فارس. ـ نظريات التجسد الإلهي والخليفة المنصور. ـ الزنادقة. ـ فكرة المهدي. ـ الإسماعيليون. ـ عبد الله بن ميمون. ـ تعاليمه. ـ الهرب من فارس ومتابعة النشاط في السلمية في سورية. ـ حمدان القرمطي ابن أحمد. ـ سعيد عبيد الله المهدي



يؤسس حكم القرامطة في شمال إفريقيا. ـ سيطرة العباسيين على السلمية. ـ قرامطة بدو يبحثون عن ملجأ في لبنان. ـ لحسا في البحرين، مقر القرامطة. ـ اصطدام الفاطميين والبحرينيين. ـ الخليفتان المعز والعزيز. ـ الخليفة الحاكم بأمره يحيي الأفكار الإسماعيلية. ـ داعيته الدرزي يفرّ إلى سورية ويجد في وادي التيم أول أتباعه. ـ حمزة. ـ شيخ الجبل والحشاشون. ـ النصيرية. ـ الدروز. ـ إحصائيات. ـ النظام الديني الدرزي. ـ العلاقة مع الإسلام. ـ الأخلاق الدرزية.ـ النظام الاقطاعي. ـ العائلات والطبقات. ـ الزي الشعبي. ـ تاريخ لبنان ـ. آل معن. ـ آل شهاب.ـ فخر الدين الأول، قرقماز وفخر الدين الثاني. ـ قيسي ويمني. ـ معركة عين داره، هجرة اليمني إلى حوران. ـ يزبكي وجنبلاطي. ـ الغزو المصري. ـ الأمير بشير شهاب الأول. ـ الهروب مرتين إلى مصر. ـ تمرد ونهاية بشير جنبلاط. ـ محمد علي يصبح سيداً على سورية. ـ ثورة دروز حوران. ـ نهاية الحكم المصري في سورية. ـ الأمير بشير شهاب ينقل إلى مالطا. ـ تطور العلاقات بين الدروز والموارنة. ـ الأمير بشير شهاب الثاني. ـ معارك بين المسيحيين والدروز. ـ الإصلاح الإداري في لبنان. ـ القنصل العام الفرنسي والبطريرك الماروني. ـ حمامات الدم في حاصبيّا ودير القمر. ـ التدخل الأوروبي وتنظيم الأمور بشكل جديد في لبنان. ـ تشكل أحزاب جديدة، الشقراوي والصمدي. ـ



موقف فرنسا وبريطانيا من المسألة السورية. ـ دروز حوران. ـ نهب بصر الحريري. ـ التدخل التركي الأول والإصلاح الإداري في حوران.ـ شبلي الأطرش. ـ محاصرة الأتراك في المزرعة. ـ عفو عام وهيجان جديد. ـ الكسّارة والسرّابة. ـ بعثة أدهم باشا. ـ معركة قراته. ـ تغيير التشكيلة الإدارية وإذلال الدروز. ـ معركة العيون. ـ محاصرة السويداء. ـ الغضب العارم في دمشق. ـ القتال قرب تل الحديد. ـ سقوط السويداء. ـ معركة تل قليب. ـ سقوط شهبا. ـ خضوع الدروز. ـ الوضع الحالي في حوران.

لم نعثر في المراجع عن أصل وديانة الشعب الدرزي[1] الملفت للانتباه إلا على عدد قليل من الأخبار المتفرقة والمتناقضة في كثير من الأحيان. ولم تنتبه أوروبا إلى وجود الدروز إلا في وقت متأخر جداً، في القرن السابع عشر، وذلك عن طريق وجود الأمير الدرزي اللبناني فخر الدين المعني في إيطاليا، ولم يحصل الأوروبيون إلا في هذا القرن (القرن التاسع عشر) على بعض الكتب الدينية الدرزية السرية جداً وذلك نتيجة الحروب في لبنان.

الديانة الدرزية ديانة سرية؛ ونتيجة لذلك نشأت حكايات كثيرة حول هذا المذهب ومعتنقيه اتهم فيها الدروز من قبل جيرانهم

---

(1) يحب الدروز، مثلهم مثل جيرانهم الموارنة في لبنان، أن يعتبروا شعباً مستقلاً (ملّة، أي جماعة دينية).



وأعدائهم بأشنع التهم. وعند تقييم المعلومات التي جمعها الأوروبيون نقلاً عن الدروز أنفسهم يجب، فوق ذلك، أخذ العلم بأن هذا المذهب الغريب والمعقد والرائع لا يعرف تفاصيله إلا جزء من الدروز. ويعود الفضل الأول إلى الباحث الفرنسي سيلفستر دي ساسي[1] في استخلاص النظام الديني الدرزي، بشكل صحيح قدر الإمكان، من الكتابات الدرزية التي تمَّ العثور عليها[2]. وهناك بعض الأخبار المستقلة الأخرى التي جمعها في المناطق الدرزية كل من الضابط الإنجليزي تشرتشل[3] والباحث الألماني بيترمان[4].

ليس من السهل التوصل، من خلال المواد والمعلومات المتوفرة حتى الآن، إلى معرفة تاريخ الدروز بشكل صحيح. حتى منشؤهم العرقي من الأمور المختلف عليها. فهناك من يعتقد أن

---

(1) سيلفستر دي ساسي، عرض للمذهب الدرزي، باريس 1838م، جزءان. هذا الكتاب يعتمد عليه غالبية الباحثين الذين يدرسون الديانة الدرزية، ومنهم: فولف: الدروز وأسلافهم، لايبزيغ 1845م.

(2) يعد الدروز بالنسبة للمسلمين كفرة وضالين، أكثر كفراً من المسيحيين واليهود. وقد كتب ضدهم رجال الدين المسلمون بمختلف طوائفهم. انظر فوستنفلد. فخر الدين، أمير الدروز، ومعاصروه، غوتنغن 1886م، ص9 وما بعدها.

(3) تشرتشل، جبل لبنان، إقامة لمدة عشر سنوات، لندن 1853م 3 أجزاء، ثم: الدروز والموارنة تحت الحكم العثماني 1840م ـ 1860م، لندن 1862م (الجزء الرابع من «جبل لبنان»).

(4) هـ. بيترمان، رحلات في المشرق، لايبزيغ 1860، جزءان.



معظمهم من أصل فارسي أو كردي أو غير ذلك من العناصر غير العربية التي جاءت إلى المنطقة، أو إنهم البقية الأكثر نقاء من الآراميين القدامى أي السكان الأصليين للبنان وحوران. ويقدم أصحاب هذا الرأي دليلاً على زعمهم أن شكل الدروز يختلف عن شكل المسيحيين والمسلمين.

إلا أن تقاليد الدروز، حسبما تأكدت بنفسي من خلال اتصالاتي المتكررة مع السكان الدروز، تناقض هذا الرأي، والملاحظات التاريخية القليلة المتوفرة لدينا عن لبنان والمناطق القريبة منه ـ وإلى هنا تعود جذور الديانة الدرزية والشعب الدرزي ـ تؤيد هذه التقاليد وما يتخللها من أخبار. حسب هذه الأخبار يعود أصل الدروز الحاليين إلى أجزاء من قبائل عربية جاءت في القرن الثاني الهجري إلى لبنان الذي كان آنذاك آرامياً مسيحياً. انضم إليهم فيما بعد بعض العناصر التركية والكردية ولكن هؤلاء امتصهم العنصر العربي الغالب. صحيح أن الدروز يبدون، بسبب نظرتهم الحربية المعاندة ولحيتهم الشعثة وبنيتهم الجسمية القوية، مختلفين عن عرب السهول أو عرب البادية، ولكن إذا ما علمنا أن هؤلاء المهاجرين انعزلوا في الجبال مئات ومئات السنين، بعضهم منذ ألف سنة، حيث شكلوا كلاً مغلقاً، فإننا نفهم سبب اختلاف شكلهم وتميزهم عن غيرهم.

لقد تمكنت خلال إقامتي مجدداً في سورية في عام 1897م من الحصول، من رجل درزي مثقف ومتنور جداً تلقى تعليمه في



الجامعات الفرنسية السورية ولديه اطلاع واسع على كتب المؤرخين العرب[1]، على معلومات متماسكة عن تاريخ وديانة شعبه وعن

---

(1) لا يوجد لدى الجغرافيين والمؤرخين العرب في العصور الوسطى سوى ملاحظات قليلة جداً عن تاريخ الدروز كما أن بنيامين فون توديلا لا يذكر عنهم سوى خبر قصير. ولم يذكرهم الصليبيون على الإطلاق؛ لا شك في أنهم اعتبروا الدروز داخلين ضمن «المسلمين» و«الكفار»، و«الإسماعيليين»، و«الحشاشين» أتباع «شيخ الجبل» المخيفين. وأدى ظهور فخر الدين في القرن السابع عشر إلى نشر كثير من الكتب عن تاريخ الدروز، نورد فيما يلي أهمها:
ف. ي. روجيه: الديار المقدسة، تاريخ حياة وموت الأمير فخر الدين أمير الدروز...، باريس 1664م؛ دولاروكيه: رحلة إلى سورية وجبل لبنان، أمستردام 1723م، وكذلك: رحلة إلى فلسطين، باريس 1717م؛ الأخبار التي جمعها السيد فون آرفيو ونقلها عن الفرنسية لابات، ستة أجزاء، كوبنهاغن ولايبزيغ 1753م ـ 1756م؛ ماريتي: تاريخ فخر الدين، أمير الدروز الكبير وتاريخ بقية الأمراء الكبار حتى 1773م، مترجم عن الإيطالية، غوتا 1790م. في الأوقات الأخيرة صدر في بيروت بعض الكتب التي ألفها سوريون مسيحيون وتروي تاريخ عائلات لبنانية، إلا أننا نلاحظ أن مصالح العائلة تغلبت في بعض الأحيان على الموضوعية في العرض. أهم هذه الكتب كتاب «أخبار الأعيان في جبل لبنان» تأليف الماروني طنوس الشدياق، مطبوع في بيروت 1859م. يعتمد هذا الكتاب بصورة رئيسية على ملاحظات كانت مجمعة في أراشيف العائلات اللبنانية المرموقة وعلى المحاضر التي كتبتها المحاكم في الأديرة والخ... ويبدو أن المصادر التي اعتمد عليها الشدياق شكلت أيضاً إلى حد ما الأساس الذي اعتمد عليه روجيه وغيره من المؤلفين في القرنين السابع عشر والثامن عشر. ومن المراجع العربية الأخرى عن لبنان والمطبوعة في بيروت: تاريخ المعاملة الكسروانية وتاريخ البطرك اسطفان الدويهي، تاريخ الموارنة، أصدره الشرتوني (انظر=



الأحداث الأخيرة في حوران وخاصة المعارك الدامية بين دروز حوران والقوات الحكومية. في جلسات طويلة كتبت كثيراً من القصص نقلاً عنه ثم توفرت لي الفرصة فيما بعد لتدقيق أقواله مع شيوخ دروز آخرين أكدوا بصورة عامة صحة أقوال مصدر معلوماتي. ومما يثير الدهشة أن التقاليد بقيت في أغلب الأحيان،

= الفصل الأول من كتاب من البحر المتوسط إلى الخليج ص16 وما بعدها). راجع أيضاً: نيبور: رحلة في بلاد العرب، أمستردام 1780م الجزء الثاني، ص348 وما بعدها؛ بوركهاردت: رحلات في سورية والأراضي المقدسة، لندن 1822م. أما تاريخ لبنان في هذا القرن والمعارك بين الدروز والموارنة التي اختتمت بالأحداث الدامية الشهيرة عام 1860م وبإعادة تشكيل لبنان سياسياً، فنجده في كتب فرنسية وإنجليزية عديدة ولكنها منحازة ضد الدروز أو معهم حسب موقف أصحابها. أذكر منها: دمشق ولبنان، لندن 1861م (بدون مؤلف)؛ جوبان: سورية في عام 1860م وعام 1861م، ليل 1880م؛ لوي دو بانديكور: فرنسا في لبنان، باريس 1879م؛ ريشارد إدوار؛ سورية 1840م ـ 1862م، باريس 1862م؛ أويجين بوجاد: لبنان وسورية 1845م ـ 1860م، الطبعة الثالثة، باريس 1867م؛ فليلس منغان: تاريخ مصر تحت حكم محمد علي، جزءان، باريس 1813م؛ فرديناند برنييه: سورية تحت حكم محمد علي، باريس 1842م؛ بارون دارمانياك: نزيب وبيروت، باريس 1844م؛ فرانسوا لينورمان: تاريخ المجازر في سورية، باريس 1861م؛ إرنست لويه: رحلة علمية في سورية، باريس 1862م؛ جورج روبنسون: رحلة في فلسطين وسورية، باريس 1838م؛ سير تشارل نيبير: الحرب في سورية، جزءان، لندن 1842م؛ آ. باتون: تاريخ الثورة المصرية، جزءان، لندن 1863م؛ إدوارد ب. باركر: سورية ومصر تحت حكم أخر خمسة سلاطين أتراك، جزءان، لندن 1876؛ الدكتور فرانتس آليولي: سورية في عام 1840، فيينا 1842م؛ مقالات مختلفة في مجلة «دو موند»، 1860م، 1861م، 1862م



وحتى في التفاصيل غير الهامة، مئات السنين دون أي تغيير وظل الناس يروونها بنفس الطريقة على الرغم من أنها لم تسجل أبداً[1].

تشكل المعلومات التي حصلت عليها من أصدقائي الدروز وأكدتها أطراف أخرى مصدر العرض الذي سأقدمه الآن في هذا الكتاب. إلا أنني أعتقد أنه من الأفضل، من أجل فهم السياق التاريخي، أن أتطرق قليلاً إلى تاريخ الإسماعيليين الذين خرج منهم الدروز.

عندما توجه في عام 636 ميلادي، عام 14 هجري، الجيش الإسلامي بقيادة أبو عبيدة الجراح إلى سورية وحاصر دمشق طلب أبو عبيدة العون من الخليفة عمر. وبناء على أمر عمر توجه عما قريب فاتح بلاد الرافدين وأعظم قائد عسكري في زمانه خالد بن الوليد، المسمى «سيف الله»، مع جزء كبير من سكان الحيرة إلى سورية. وكان الحيرانيون، أحفاد القبيلة اليمنية المذكورة سابقاً، «اللخميين»[2]، بقيادة أميرهم أمير عون، ابن ملك الحيرة المنذر ابن النعمان الذي كان المسلمون قد خلعوه عن العرش. شارك الأمير عون في جميع المعارك التي خاضها المسلمون في سورية وحصل لقاء ذلك على منطقة معرة النعمان الواقعة إلى الجنوب من حلب. بقي هنا مع جماعته طيلة الحكم الأموي. في الحروب الأهلية اللاحقة التي انتهت بسقوط الحكم الأموي قاتل أحفاد عون إلى جانب العباسيين وشاركوا في معركة الزاب. وعندما جاء الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور (136 ـ 158هـ =

---

(1) لا يوجد أي تناقض بين المعلومات الأرشيفية الواردة في «أخبار الأعيان» والمعلومات التي رواها لي مصدري من ذاكرته.

(2) انظر كتاب من البحر المتوسط إلى الخليج ج1 ص112.



754 ـ 775م) إلى دمشق توجه إليه أرسلان، الحفيد الخامس للأمير عون (حسب سجلات الأسرة توفي عام 171هـ) وطلب منه إعطاءه منطقة أخرى بدلاً من منطقته الحالية القليلة الخصوبة. بناء على ذلك طلب منه أبو جعفر الانتقال مع قومه إلى لبنان وأعطاه جميع الأراضي التي ينتزعها من المردة (أو الجراجمة) الموجودين هناك على شرط أن يؤمن الاتصال بين دمشق والبحر عبر منطقة المردة.

كان المردة[1] يشكلون السكان الأصليين لمنطقة جبل لبنان ويعتبرون أسلاف الموارنة الحاليين. وكانوا في عهد النبي محمد قد أصبحوا مسيحيين منذ زمن طويل. واستطاعوا بحماية الجبال الدفاع عن عقيدتهم وحريتهم ضد الإسلام. من الناحية القومية كانوا دون أي شك آراميين[2]. وكان سكان لبنان في عهد القيصر البيزنطي أيضاً في صراع مع الحكومة، آنذاك دفاعاً عن شعائرهم الدينية ضد المذهب الأرثوذكسي الإغريقي الذي يعتنقه البلاط البيزنطي.

يعتقد أنهم قد حصلوا في ذلك الوقت على اسم «المردة» (المتمردون). ويبدو أنهم سببوا للأمويين بعض المتاعب[3].

---

(1) انظر إسطفان الدويهي الإهدني: تاريخ الموارنة، نشره وعلق عليه رشيد الخوري الشرتوني، بيروت 1890م، ص68 وما يليها. مولر: الإسلام في بلاد المشرق والمغرب، برلين 1885م، الجزء الأول، ص352، يسميهم المردئيين «المردة».

(2) انظر الفصل الأول من كتاب من البحر المتوسط إلى الخليج، ج1 ص20 وما بعدها وص29.

(3) انظر مولر، نفس المرجع السابق، الجزء الأول، ص376.



تلبية لطلب الخليفة أبو جعفر المنصور قام أرسلان وجماعته بنصب خيامهم على جبل المغيثة، ظهر البيدر الحالي. ومن أميرهم آنذاك حصلت على اسمها أسرة أرسلان التي ما زالت مزدهرة حتى اليوم[1]. خاض القادمون الجدد من عرب الجنوب معارك دامية مع المردة، ما زال يذكّر بها الموقع الذي دارت فيه المعركة الحاسمة والمسمى «وادي الموت»، تمكنوا خلالها من توسيع أملاكهم. وخلال وقت قصير استولوا على كامل جنوب غرب لبنان وطردوا المردة من هذه المناطق. وقام ابن الأمير المظفر أرسلان وخليفته الأول ببناء الشويفات، المقر الحقيقي لآل أرسلان في لبنان، والذي لم يزل حتى اليوم في يد العائلة. وشيئاً فشيئاً جاءت إلى لبنان عائلات شيوخ أخرى مع أتباعهم الكثر. وكان أشهر هذه العائلات ينتمون، مثلهم مثل آل أرسلان، إلى مجموعة عرب الجنوب الذين تطلق عليهم جميع المراجع عادة اسم «تنوخ»[2] وإلى عائلة معن من عرب الشمال التي

---

(1) تزعم عائلة أرسلان (تلفظ في صيغة الجمع رسلان أيضاً) أن لها صلة قربى بأسرة المعتضد التي حكمت إشبيلية وكانت من اللخميين أيضاً؛ كما أن لها علاقات مصاهرة مع العباسيين والعلويين.

(2) في الأوقات اللاحقة اتخذ أفراد أسرة تنوخ أسماء خاصة بهم. ومن الفروع التي لعبت دوراً مهماً في تاريخ لبنان الفرع الذي حمل اسم «تنوخ» دون أي إضافة، ثم فرع «علم الدين» وفرع «أرسلان». أما الفرعان الأولان فقد انقرضا. ولقد مر معنا سابقاً الاسم «تنوخ» (الفصل الثالث، ص112) وتفيد التقاليد المتوارثة بأنه كان يطلق على جميع القبائل العربية التي هاجرت من اليمن والتي توجه جزء منها (تحت قيادة اللخميين) إلى الفرات الأدنى وأسس هناك مدينة الحيرة. بينما توجه جزء آخر إلى حوران وأسس أول مستوطنة سبئية في هذه الجبال.



تنتمي إلى قبيلة بني ربيعة التي استوطنت في بداية القرن الثاني عشر في بعقلين في الشوف[1]. شكل جميع هؤلاء القادمين جزيرة مختلفة عن سكان لبنان الآراميين المسيحيين من جميع الجوانب: فهم مسلمون من ناحية العقيدة وعرب من ناحية الأصل واللغة. وما زال هذا التناقض قائماً حتى اليوم. وفي القرون اللاحقة جاءت إلى لبنان فصائل صغيرة من أصل غير عربي ومنهم: آل جنبلاط الأتراك، وآل عماد الأكراد من العمادية في بلاد الرافدين، وعائلة النكد[2] التي انقرضت الآن في سورية. إلا أن هذه الأجزاء الغريبة، ولكن المسلمة أيضاً، كانت بلا أهمية بالنسبة للوسط العربي الذي تعيش فيه. إذ ما لبثت أن ذابت في محيطها العربي واكتسبت اللغة والعادات العربية. كان لجميع هذه العائلات علاقة ارتباط فضفاضة مع حكام سورية المسلمين. كانوا يعرفون جيداً كيف ومتى يمجدون حكام دمشق الأقوياء. وشيئاً فشيئاً طردوا المردة إلى مناطق أبعد وأصبحوا سادة الجزء الأكبر من لبنان. في الحرب مع الصليبيين كانوا منذ اللحظة الأولى من ألد خصوم الفرنجة. ويبدو أن بعض العائلات قد عانت بشكل مخيف في ذلك الوقت. وكان على رأس المتضررين آل أرسلان، الذين كانوا الأسرة الحاكمة حتى ذاك الحين. فقد دافعوا عن بيروت، التي كانت تحت حكمهم، دفاع الأبطال ولكن دون جدوى. وما زالت العائلة تتذكر حتى اليوم

---

(1) عائلة «معن» انقرضت أيضاً.

(2) تفيد إحدى الروايات بأن النكد جاؤوا من المغرب حيث ما زالوا موجودين تحت اسم «الألكد». وهناك اختلاف في الرأي حول ما إذا كانت هذه العائلة من أصل عربي أم بربري.



صمود الأمير علي عضد الدولة. ويذكر أن 25 فرداً من أفراد العائلة قد قتلوا في المعارك مع الصليبيين. وقام الصليبيون بتدمير مقر العائلة في الشويفات وكادت العائلة أن تنقرض. وكان السليل الوحيد الذي بقي من العائلة على قيد الحياة بحتر بن علي المذكور أعلاه، الذي خبأته أمه وهو طفل في أحد الأقبية (في قرية عرمون)(1) والذي أصبح فيما بعد جد العائلة الجديدة(2).

تسلسل نسب الأمراء من عائلة ارسلان

1 ـ ابن الملك امرئ القيس ابن ماء السماء.

2 ـ ابن الملك المنذر اللخمي.

3 ـ ابن الملك المنذر.

4 ـ ابن الملك النعمان أبي قابوس.

5 ـ ابن الملك المنذر المغرور.

6 ـ ابن الأمير عون المتوفى سنة 12هـ.

7 ـ ابن الأمير مسعود الملقب بقحطان المتوفى سنة 45هـ.

8 ـ ابن الأمير المنذر الملقب بالتنوخي المتوفى سنة 78هـ.

9 ـ ابن الأمير بركات المتوفى سنة 106هـ.

---

(1) انظر شدياق، نفس المرجع السابق ص225.

(2) فيما يلي نعرض شجرة تسلسل النسب لعائلة أرسلان مع ذكر الابن البكر للجيل الأحدث. الأمير مصطفى باشا أرسلان قائمقام الشوف الحالي هو عم الأمير شكيب الوارد اسمه في آخر الجدول. جميع آل أرسلان يسمون أنفسهم «أمير».



10 ـ ابن الأمير مالك المتوفى سنة 134هـ.

11 ـ ابن الأمير ارسلان المتوفى سنة 171هـ.

12 ـ ابن الأمير مسعود المتوفى سنة 223هـ.

13 ـ ابن الأمير هاني المتوفى سنة 258هـ.

14 ـ ابن الأمير عامر المتوفى سنة 272هـ.

15 ـ ابن الأمير النعمان المتوفى سنة 325هـ.

16 ـ ابن الأمير المنذر المتوفى سنة 260هـ.

17 ـ ابن الأمير عز الدولة تميم المتوفى سنة 387هـ.

18 ـ ابن الأمير أبي الفضل مطوع المتوفى سنة 410.

19 ـ ابن الأمير عماد الدين موسى المتوفى سنة 428هـ.

20 ـ ابن الأمير أبي المحامد عيسى المتوفى سنة 444هـ.

21 ـ ابن الأمير شجاع الدولة عمر المتوفى سنة 481هـ.

22 ـ ابن الأمير عضد الدولة عليّ المتوفى سنة 504هـ.

23 ـ ابن الأمير ناهض الدين أبي العشائر بحتر المتوفى سنة 561هـ.

24 ـ ابن الأمير قوام الدين عليّ عرف الدولة المتوفى سنة 627هـ.

25 ـ ابن الأمير بدر الدين يوسف المتوفى سنة 690هـ.



26 ـ ابن الأمير زين الدين صالح أبي الجيش المتوفى سنة 695هـ.

27 ـ ابن الأمير سيف الدين مفرج المتوفى سنة 748هـ.

28 ـ ابن الأمير نور الدين صالح المتوفى سنة 790هـ.

29 ـ ابن الأمير سيف الدين يحيى المتوفى سنة 827هـ.

30 ـ ابن الأمير صلاح الدين مفرج المتوفى سنة 888هـ.

31 ـ ابن الأمير بهاء الدين خليل المتوفى سنة 916هـ.

32 ـ ابن الأمير جمال الدين المتوفى سنة 994هـ.

33 ـ ابن الأمير محمد المتوفى سنة 1014هـ.

34 ـ ابن الأمير مذجح المتوفى سنة 1026هـ.

35 ـ ابن الأمير يحيى المتوفى سنة 1042هـ.

36 ـ ابن الأمير فخر الدين المتوفى سنة 1063هـ.

37 ـ ابن الأمير سليمان المتوفى سنة 1107هـ.

38 ـ ابن الأمير حيدر المتوفى سنة 1135هـ.

39 ـ ابن الأمير فخر الدين المتوفى سنة 1195هـ.

40 ـ ابن الأمير يونس المتوفى سنة 1237هـ.

41 ـ ابن الأمير حسن المتوفى سنة 1269هـ.

42 ـ ابن الأمير حمود المتوفى سنة 1305هـ.

43 ـ الأمير شكيب المولود سنة 1286هـ.



يتعين علينا الآن أن نعود في التاريخ عدة قرون إلى الوراء. قبل أن تتوسع الدولة التي أسسها النبي محمد وتصبح بعد انتصارات لا مثيل لها أعظم أمبراطورية في ذلك الزمان[1]،

---

(1) في القرن الثامن الميلادي كان الإسلام قد سيطر على شبه الجزيرة العربية والشرق الأوسط، باستثناء المناطق المرتفعة من آسيا الصغرى ومنطقة القوقاز، وعلى بلاد فارس وعلى أجزاء كبيرة من ترانس أوكسانيا ثم شمال إفريقيا بالكامل وجزء كبير من شبه الجزيرة الإسبانية ومنطقة ناربون في جنوب فرنسا (انظر الخريطة الموجودة عند مولر، الإسلام، الجزء الثاني، ص18؛ ثم ل. منكه، بلدان الإسلام، في: أطلس شبرونر ـ منكه، غوتا 1877م، رقم 78، 81 ـ 83). وبعد وقت قصير خضعت زنجبار والساحل الشرقي من إفريقيا بالإضافة إلى مناطق واسعة من هذه القارة، لحكام مسلمين. ومن العصور الوسطى كانت صقلية وأجزاء من سردينيا وكورسيكا، بالإضافة إلى جنوة ومدن أخرى على الساحل الإيطالي الشمالي والساحل الفرنسي، تحت الحكم الإسلامي لفترات مؤقتة. أما المناطق الجبلية من آسيا الصغرى وتركيا الأوروبية مع القسطنطينية فقد خضعت في وقت متأخر نسبياً، في القرن الخامس عشر، للحكم الإسلامي الذي كان قبل ذلك بوقت طويل قد طرد من أوروبا. بالمقابل حققت العقيدة الإسلامية في آسيا وإفريقيا مزيداً من التقدم. وفي الوقت الحاضر يحتل الإسلام بعد المسيحية المرتبة الثانية من حيث الانتشار الجغرافي. جميع المناطق التالية تعتبر مناطق إسلامية: في أوروبا: أجزاء من البلقان، القرم وجنوب شرق روسيا؛ الشمال الإفريقي بكامله، بلدان الصحراء، بلدان مختلفة في وسط وغرب إفريقيا، زنجبار، أجزاء كبيرة من شرق إفريقيا؛ كامل تركيا الآسيوية تقريباً؛ شبه الجزيرة العربية، إيران، الإمارات الواقعة في غرب ووسط آسيا والمندمجة بشكل أو بآخر مع الأمبراطورية الروسية؛ أجزاء واسعة من الهند والأرخبيل الماليزي، وكذلك جزر صغيرة مختلفة في المحيط الهندي وبحر الجنوب، من جزر القمر حتى غينيا الجديدة؛ في الصين المناطق الغربية وحوض تاريم مع الإمارات التركستانية =



= والترية التي كانت سابقاً مستقلة مع اثنين من شريط البلدان المحيطة من الغرب إلى الشرق بصحراء آسيا الوسطى والتي يمتد شريطها الشمالي عبر كولدث حتى منشورية وشريطها الجنوبي عبر التيبت إلى جنّان. وحتى في أقصى الشرق في بكين وهونغ كونغ توجد جاليات إسلامية هامة جداً وهناك جاليات إسلامية متفرقة نجدها في بلدان أخرى مختلفة: أشير هنا بشكل خاص إلى الأعداد المتزايدة للمستوطنات الماليزية غالباً في جنوب إفريقيا وأستراليا. وفي الآونة الأخيرة تشكلت جاليات إسلامية حتى في بريطانيا وأمريكا من مسيحيين منشقين عن المسيحية.

في عام 1855م أحصى رافنشتاين (نظرة إحصائية إلى السكان حسب توزعهم الديني واللغوي في أوروبا وما وراء القوقاز وتركيا في آسيا، لندن 1855م، ص13) العدد الإجمالي للمسلمين فبلغ، حسب تقديره، 105,688,000 نسمة أي 8,37 بالمائة من سكان الأرض البالغ عددهم 1,263,574,860 نسمة. وفي الإحصاء الذي أجراه فريدريك مارتينس (الكتاب الإحصائي السنوي لعام 1875م، ص35) بلغ عدد المسلمين 204,200,000 أي 15,81 من إجمالي سكان الأرض البالغ عددهم 1,292,000,000. أما البروفسور بوراشيك فيقدر عدد المسلمين عام 1889م في «الجداول الإحصائية الجغرافية لأوتوهوبنر (فرانكفورت/ ماين 1889م، ص45)، وكذلك فيشمان في أطلس الجيب يوستوس برتس لعام 1895م، بـ171,000,000 فقط أي 11,3 بالمائة من سكان العالم البالغ عددهم 1,500,000,000 نسمة. أما ميشائيل غ. مولهال فيقدر في «قاموس الإحصاء» (لندن 1892م ص513) عدد المسلمين في عام 1892م بـ200,900,000 نسمة أي 18,95 بالمائة من عدد سكان الأرض البالغ 1,060,120,000 نسمة.

هناك إحصائيات أخرى نجدها عند الدكتور هوبرت يانزن عن أماكن انتشار الإسلام مع معلومات عن مختلف الطوائف والمذاهب والطرق الصوفية في مختلف بلدان الأرض 1890م حتى 1897م (فريدركسهاغن قرب برلين 1897م، ص72). يتوصل يانزن، مستنداً بعناية إلى المراجع الخاصة المتعلقة بكل قارة على حدة إلى الجدول التالي:



نسبة المسلمين السنّة والشيعة في العالم

القارات (الجزر الرئيسية)	عدد السكان الإجمالي	سنّة	شيعة	مسلمون عام 1880م	النسبة المئوية من إجمالي سكان الأرض	المسلمون عام 1897م
أوروبا	٣٧٢,٤٥٩,٦٣٤	١١,٤٥٢,١٣٨	١٤٧٠	١١,٤٥٣,٦٠٨	٣,٠٧٥	١١,٥١٥,٤٠٢
آسيا	٨٦٢,٧٠٤,٤٦١	١٢٤,١٥٥,٠٣٧	١٠,٠٧٦,٤١٤	١٣٤,٢٣١,٤٥١	١٥,٥٥٧٧	١٤٠,٢٣٥,٨٦٤
ماليزيا	٤٤,٦٢٧,٥٨٧	٣٠,٤٥٥,٦٣٣	-	٣٠,٤٥٥,٦٣٣	٦٨,٢٤٤	٣١,٠٤٢,١٤٤
آسيا مع ماليزيا	٩٠٧,٤٢٢,٠٤٨	١٥٤,٦١٠,٦٧٠	١٠,٠٧٦,٤١٤	١٦٤,٦٨٧,٠٨٤	١٨,١٤٩	١٧١,٢٧٨,٠٠٨
أوقيانوسيا	٢,٤٨٣,٣٥٣	٧٠٠	-	٧٠٠	٠,٠٢٨	٧٠٠
أستراليا	٣,٤٧٣,٥٥٦	١٧٧٠٢	-	١٧٧٠٢	٠,٥١٠	١٨٧٤٦
أستراليا وأوقيانوسيا	٥,٩٥٦,٩٠٩	١٨,٤٠٢	-	١٨,٤٠٢	٠,٣٠٩	١٩٤٤٦
إفريقيا	٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠	٧٤,٩٥٣,٥٤١	١٠٠٠	٧٤,٩٥٤,٥٤١	٣٧,٤٧٧	٧٦,٨١٨,٢٥٣
أمريكا	١٣٠,١٠٤,٢٨٨	٤٨,٩٢٢	٦٣٥	٤٩٤٥٧	٠,٠٣٨	٤٩٥٦٣
الكرة الأرضية بكاملها ١٨٩٠	١,٦١٥,٩٤٢,٨٧٩	٢٤١,٠٨٣,٦٧٣	١٠,٠٧٩,٥١٩	٢٥١,١٦٣,١٩٢	١٥,٥٤٣	٢٥٩,٦٨٠,٦٧٢
			نسبة الشيعة من المسلمين ٤,٠١٣٪			

الكرة الأرضية بكاملها عام ١٨٩٧م ١,٦٧٢,٥٠٠,٠٠٠ نسبة المسلمين = ١٥,٥٤٣٪ = حوالي ٢٦٠ مليون.

من الطبيعي أن الأرقام المذكورة أعلاه تستند إلى تقديرات يجب التعامل معها بحذر. ولكن على أي حال يتبين منها أن الإسلام ازداد قوة في هذا القرن، وهو تطور ما زال مستمراً ويلعب دوراً رئيسياً فيه خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد.



كانت تحمل في داخلها بذرة الشر التي عملت أكثر من الأعداء الخارجيين على نخر الدولة من الداخل عن طريق تمرد الحكام البعيدين وغير ذلك من الأخطار. جاء هذا من حركة كانت تحمل اسم علي، ابن عم النبي محمد وصهره، وترفع اسمه شعاراً لها لكنها تسببت في تفكك الأمبراطورية الإسلامية الموحدة القائمة على الخلافة العربية وفي تحولها إلى عدد من الدول الإسلامية القائمة، باستثناء الأمبراطورية العثمانية الوريث الرئيسي للخلافة، على أساس قومي بالدرجة الأولى. بعد وقت قصير من وفاة النبي بدأت الحركة التي كانت لها عواقب وخيمة. كان الخطأ الأكبر الذي وقع فيه النبي محمد، الذي فيما عدا ذلك وضع نظاماً عبقرياً للدولة الثيوقراطية، هو عدم تحديد خليفة له أو عدم وضع قواعد لاختيار الخليفة. لو كان للنبي ولد ذكر لكان ، من يعلم، قد وضع ربما قواعد لاختيار الخليفة الذي يتولى القيادة الدنيوية للمسلمين. لكن النبي توفي دون أن ينظم في القرآن أو في الحديث قضية الخلافة البالغة الأهمية. أدى تجاوز علي بن أبي طالب، صهر النبي، في الانتخابات الثلاثة التي جرت خلال 22 عاماً إلى تذمر عدد كبير من الناس ولكن من سخرية القدر الملفتة للانتباه هو أنه عندما تولى أخيراً منصب الخليفة، الذي كان يعتقد غالبية الناس أنه من حقه، حدثت لأول مرة معارك بين مسلمين ومسلمين[1]. وبعد ذلك انقسم أنصار علي أنفسهم إلى قسمين: الخوارج وشيعة

(1) انظر مولر، الإسلام، الجزء الأول، ص316.



علي. وفي وقت لاحق أطلق اسم «شيعة»، أي أتباع أو أنصار، على الفرقة التي ترى أن خلافة النبي محمد كانت منذ البداية من حق علي ثم من حق أبنائه وأبناء أبنائه من بعده وحدهم دون استثناء لأنهم آل البيت ومن نسل الرسول. ثم صارت كلمة شيعة تطلق على كل حركة تناصر رجلاً من عائلة النبي (آل البيت) ضد الحكومة القائمة.

بعد وفاة علي حُرم آل النبي مرة أخرى من منصب الخليفة. فبدلاً من الحفيدين الوحيدين للرسول الحسن والحسين اللذين فقدا حياتهما في الصراع مع خصومهما، تولى الحكم الدنيوي والروحي معاوية بن أبي سفيان الذي ينتمي إلى قبيلة النبي، قريش، ولكن لا تربطه به أي قرابة مباشرة. أصبح معاوية مؤسس الدولة الأموية التي اتخذت من دمشق مقراً لها وتولت الخلافة من عام 661 حتى عام 750 ميلادي. انتزع الخلافة من يد الأمويين العباسيون الذين نقلوا العاصمة من دمشق إلى بغداد والذين لم ينحدروا من نسل علي وفاطمة بنت الرسول ولكنهم كانوا، على أي حال، أقرب إليه من الأمويين. فهم ينحدرون من عباس عم النبي محمد ومنه أخذوا اسمهم. وهم يزعمون أن أحد أحفاد عباس حصل على حق تولي الخلافة من عبد الله أحد أحفاد الخليفة علي ولكن من امرأة من قبيلة «بني حنيفة»[1]، أي ليس من فاطمة بنت النبي. وعلى أي حال فقد استولى العباسيون على

(1) انظر مولر، نفس المرجع السابق، الجزء الأول، ص379 وص444.



الخلافة والحكم بمساعدة العليين الذين كانوا ضد السلالة العلوية المنحدرة من علي وفاطمة وكانوا يريدون من حربهم ضد الأمويين، بالدرجة الأولى، الانتقام لمقتل الحسن والحسين[1].

أما أتباع علي الذين صاروا اعتباراً من الآن يسمون بحق «الشيعة» فقد عرفت الخلافة العباسية كيف تحاربهم وتشتتهم. ولأن العباسيين لم يكونوا من نسل علي وفاطمة فقد كان هذا كلمة السر للتحولات التي بدأت في القرن الأول لحكمهم. لكن الحركة المناوئة للعباسيين كانت تحمل في طياتها، وبدرجة أعلى من التحولات التي أدت إلى سقوط الأمويين، إلى جانب العامل الديني طابعاً سياسياً قومياً. فالمركز الحقيقي للثورات المتجددة ضد الحكم العباسي كان موجوداً في النصف الشرقي من الأمبراطورية، في فارس، وهنا كان الجانب الديني بالنسبة للكثيرين مجرد غطاء يختبئ خلفه حقد قومي يختلج في صدور الفرس الذين قضى أبناء الصحراء العرب على حضارتهم التي

(1) بقيت الخلافة منذ ذلك الحين في يد العباسيين حتى في وقت لاحق عندما أصبحت السلطة الدنيوية جزئياً أو كلياً في يد قادة جيوشهم. بعد تدمير بغداد على يد المغول نقل السلطان المملوكي المصري بيبرس الخليفة العباسي المستنصر إلى القاهرة حيث بقي خلفاؤه من بعده يمثلون هنا السلطة الدينية للخلافة حتى عام 1517م. في ذلك العام نقل السلطان التركي سليم الأول، الذي استولى على سورية ومصر، السلطة الروحية أيضاً من المتوكل آخر خلفاء بني العباس له ولأسرته العثمانية في احتفال رسمي.



كانت أكثر تطوراً من الحضارة العربية وأخضعوهم لسيطرتهم.

عندما أعلن العباسيون الحرب على الأمويين وقف الفرس معهم على أمل أن يحصلوا هم أنفسهم من وراء ذلك على حريتهم. لكن خيبة الأمل التي منيوا بها فيما بعد زادت من حقدهم على العرب وعلى العباسيين الذين يمثلونهم إلا أن العامل الديني لعب هنا دوراً لا يجوز التقليل من أهميته. كان حكم العرب الذي لم يكن من الممكن التخلص منه، يفرض باسم الله، الإله الجديد، وكانت هذه الديانة الجديدة تلقى الرفض من الديانات القديمة التي كانت موجودة عند الفرس ولديها أفكار مختلفة عن مفهوم الله تميل إلى التصوف بالمعنى الرجعي. وكانت عواقب الحروب التي دارت بين العنصر العربي والعنصر الفارسي رهيبة وأدت إلى دمار الأمتين.

منذ العهد الساساني انتشرت في فارس أفكار تؤمن بوحدة الوجود (وحدة الخالق مع الطبيعة أو انحلاله فيها) وأفكار شيوعية لا بل وأفكار متحررة كلياً من كل قيد، وكذلك أفكار أخرى مقتبسة من الديانات الشرقية مثل التناسخ (التقمص) وبالأخص نظرية التجسد الإلهي أي ظهور الإله مجسداً بهيئة الإنسان يجسد أعلى سلطة دنيوية. خلال فترة حكم الخلفاء العباسيين الأوائل رفع رؤوسهم أتباع التعاليم الزرادشتية القديمة وبعد القضاء عليهم ابتدعت أنظمة جديدة تعتمد على الأفكار الوثنية القديمة المذكورة آنفاً التي لم تكن مهتمة بالديانة الجديدة الإسلام: كثير من



الدجالين الطموحين ادعوا أنهم هم أنفسهم التعبير المجسد عن الروح الإلهية أو إنهم مفوضون بتمثيله على الأرض. ولكن كلما اتسع مع مرور الزمن انتشار الإسلام في فارس وازداد نفوذ المسلمين هناك، كلما دخل مزيد من الأفكار الإسلامية إلى هذه الأنظمة الدينية الجديدة.

بناء على ذلك من السهل أن نفهم أن جزءاً من المسلمين في فارس بالذات ما لبثوا خلال وقت قصير أن طبقوا تعاليم التجسيد الإلهي على أبناء الأسرة النبوية أي آل البيت وبحيث إن التجسد الإلهي ينتقل بالوراثة من الأب إلى الابن. ففي عهد المنصور، الخليفة العباسي الثاني والذي كان من أقوى الخلفاء العباسيين، (754 ـ 775م) ظهرت صيغة غريبة لنظرية التجسيد لم تكن في الواقع سوى تمجيد عظيم للمنصور نفسه. إذ جاء عدد كبير من الفرس من أماكن بعيدة إلى بلاط الخليفة وتحدثوا عنه بصفته إلههم واعتبروا اثنين من كبار موظفيه في مركز آدم والملاك جبريل[1]. لكن المنصور أدرك الخطر الذي يكمن في تطبيق هذه النظرية على الأسرة العباسية التي لا تنحدر بخط مستقيم من علي وزوجته فاطمة ابنة الرسول. ولذلك أمر بزج أصحاب الفكرة في السجن، وعندما حدث تمرد إثر ذلك أمر بقتلهم. ولكن سرعان ما نهض أتباع جدد لنظرية التجسيد وأصبحوا اعتباراً من الآن ضد

---

(1) انظر مولر، نفس المصدر السابق، الجزء الأول، ص494.



الخلافة العباسية. نذكر منهم، على سبيل المثال، عطا المقنّع، فارسي من مرو، الذي ادعى أنه هو التجسيد الأخير للإله وكان لا يسمح للناس برؤيته إلا من خلال خمار ذهبي، ومن برجه في سنام كسب تأييد أجزاء واسعة من ترانس أوكسانيا. لم يكن من الممكن إيقاف الحركة إلا بجهد كبير ولم يقض عليها إلا في عام 780، بعد عامين من النشاط، حيث توفي النبي المزيف مع جميع نسائه في قصره الجبلي الذي قام هو نفسه بحرقه. كان هذا «نبي خراسان المقنع» حسب توماس مور (لالّا روخ)[1]. ولكن مع ذلك ازداد عدد أصحاب هذه النظريات الدينية الجديدة إلى درجة أن العباسيين كلفوا جهازاً حكومياً خاصاً بملاحقتهم والقضاء عليهم. وأطلق على جميع هؤلاء الكفرة والملحدين وأصحاب الأفكار الحرة والمعارضين اسم «الزنادقة»، وهو اسم كان يطلق في العهد الساساني على السحرة وغيرهم من المنشقين عن الدين السائد، وأعلنت عليهم حرب لا هوادة فيها. ولذلك لجأ هؤلاء المتعصبون إلى العمل في السر وأصبحوا بالتالي أشد خطورة.

نشأت هذه الحركات في البداية، كما ذكرنا، على الأرض الفارسية ولكن شيئاً فشيئاً تخلصت من طابعها المعادي للإسلام ثم من عدائها للعرب أيضاً. وهكذا حفل بلاط الخلافة العباسية بالعديد من المستشارين ورجال الدولة غير العرب. وشيئاً فشيئاً

---

(1) انظر مولر، نفس المصدر السابق، الجزء الأول، ص495.



أصبحوا هم الحكام الفعليون وأصبح دور الخليفة يقتصر على السلطة الدينية. ولكن هذا المظهر الأخير من مظاهر السلطة كان الزنادقة يريدون نزعه عن الخليفة. وساعدهم على تنفيذ مآربهم الوضع الاقتصادي الصعب الذي شهدته الدولة العباسية.

في هذه الظروف نشأت وانتشرت فكرة المهدي (المنقذ أو المخلّص) التي تقول إن الخليفة الحقيقي المختار من الله سيظهر في يوم من الأيام من السلالة المباشرة لعلي ويؤسس على الأرض حكماً يقوم على العدل والمساواة. هذه الفكرة التي لم تزل حتى يومنا هذا تحرض في بلدان مختلفة وفي أزمان مختلفة الجماهير المستاءة من الوضع القائم، وسبّبت وتتسبب في سقوط ممالك ونشوء ممالك جديدة، جعلت الزنادقة، عند انهيار السلطة العباسية في فارس، يحصلون على الدوام هناك، وأيضاً في العراق والمناطق العربية الأخرى، على أنصار جدد[1].

في هذه الأثناء كان العلويون أنفسهم قد انشقوا، لكنهم كانوا يلتفون عموماً حول اتجاهين رئيسيين: الأول يعتبر الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر بينما يرى الثاني أن الإمام السابع هو المهدي المنتظر. ويقصد بكلمة «إمام» بهذا المعنى أولئك الأشخاص الذين يحق لهم وحدهم خلافة النبي محمد في «حكم المسلمين»

(1) تجدر الإشارة إلى أن العباسيين أنفسهم استفادوا في بداية الأمر من فكرة المهدي واستثمروها لصالحهم. انظر غ. فان فلوتن، تاريخ العباسيين، لايبزيغ 1898م (مجلة الجمعية الجغرافية).



وهم بالتحديد علي بن أبي طالب، ابن عم النبي وزوج ابنته، ثم ولداه الحسن والحسين وأبناء الحسين وأحفاده من بعده.

كان الإمام السادس جعفر الصادق، الحفيد الثاني للحسين. يرى أتباع امامية السبعة [السبعية] في ابنه إسماعيل الإمام السابع والمهدي المنتظر، بينما يرى أتباع الاثني عشرية أن المهدي هو الإمام محمد المنتظر، أي حسب حسابهم الإمام الثاني عشر الذي ينحدر من ابن آخر لجعفر الصادق غير إسماعيل اسمه موسى الكاظم[1]. يسمى أتباع السبعة [السبعية] «الإسماعيليين» نسبة إلى إمامهم السابع إسماعيل، وهم منذ القديم الفئة الأكثر تطرفاً بين الشيعة[2].

---

(1) فيما يلي جدول بأسماء الأئمة:

1 ـ علي ـ فاطمة
2 ـ الحسن توفي 50هـ
3 ـ الحسين توفي 61هـ
4 ـ علي زين العابدين توفي 94هـ
5 ـ محمد الباقر توفي 113هـ
6 ـ جعفر الصادق توفي 148هـ
7 ـ موسى الكاظم توفي 183هـ — 7 ـ إسماعيل أو محمد
8 ـ علي الرضا توفي 202هـ
9 ـ محمد الجواد توفي 220هـ
10 ـ علي الهادي توفي 254هـ
11 ـ حسن العسكري توفي 260هـ
12 ـ محمد المنتظر، اختفى عام 260هـ.

(2) انظر ستان غوريار: نصوص عربية عن مبادئ الإسماعيليين، باريس 1874م.



يعتقد أن الإسماعيليين والاثني عشرية تشكلوا كفرقة دينية متميزة في حياة الإمام السابع والإمام الثاني عشر، أي حوالي عام 765م بالنسبة للأولين وحوالي عام 873 بالنسبة للأخيرين[1]. ولكن عندما لم تستطع أي من الفرقتين تحرير الناس من جور الحكام القائمين أخذ الناس فيما بعد يعيشون على الاقتناع بأن المهدي يبقى متخفياً عن أعين الناس ليظهر ربما بعد عدة أجيال كمخلّص ومنقذ ويقيم على الأرض حقبة جديدة ملؤها السعادة.

معظم الأديان التي نشأت في القرن التاسع في الأرض الفارسية على أرضية الديانات الوثنية اعترفت بمهدي الإسماعيلية كمهدي لها أيضاً. وكما أن الفرس تبنوا، متأثرين بتطورات العصر، إلى جانب شخصيات الأئمة من أسرة النبي محمد، جميع التوابع الإسلامية الأخرى فإن الأفكار المختلفة التي نشأت على الأرض الفارسية دخلت أيضاً إلى سورية وشبه الجزيرة العربية، أي إلى الموطن الأصلي للإسلام، وإلى جميع الأماكن التي استقر فيها العرب. ويبدو أن الرجل الذي بلور الأفكار والمطامح الإسماعيلية وحوّلها إلى مبدأ كان فارسياً واسمه عبد الله بن ميمون، ابن طبيب عيون ومفكر حر كان طموحاً جداً وعدواً لدوداً للعرب بصورة عامة وللعباسيين بصورة خاصة. وإليه ينسب ذلك

---

(1) انظر مولر، نفس المصدر السابق، الجزء الأول، ص588.



النظام الشيطاني الذي يحوّل الناس، عن طريق تحفيز خيالهم وتشويشه، إلى أدوات عديمة الإرادة في يد رئيس الفرقة، وخلق بذلك عدداً كبيراً من القتلة والمخربين واستطاع، بواسطة منظمته الإرهابية الناشطة سراً في جميع أرجاء العالم الإسلامي، إقامة ممالك وإسقاط عروش. ظل هذا التنظيم العامل الأقوى في العالم الإسلامي آنذاك إلى أن قضى عليه الزحف المغولي الرهيب أيضاً بعد معارك ضارية ودامية. أما البقايا الإسماعيلية التي ظلت موجودة بعد ذهاب السوط الإلهي المتمثل في جنكيزخان وهولاكو خان، والأشكال الشاحبة المسالمة للمذهب الإسماعيلي التي لم تزل موجودة حتى اليوم، فهي عديمة الأهمية قياساً إلى ما كانت عليه الفرقة في الماضي. وعلى الرغم من كل التشويش الموجود في نظام ابن ميمون فلا يمكن أن ننزع عنه صفة العبقرية. فهو يرى أن الإله قد ظهر سبع مرات بهيئة بني الإنسان: تجسد في آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وفي المهدي، الذي لم يعد هنا إسماعيل نفسه وإنما ابنه محمد. وهذا الأخير، أي محمد بن إسماعيل، لم يمت وإنما أصبح غير مرئي وسيظهر في يوم من الأيام مرة أخرى. وكل تجسيد للذات الإلهية كان له معاون، إمام يتولى التعبير عن الإرادة الإلهية ونشرها. وهكذا كان بطرس إمام المسيح وعلي إمام الظهور المحمدي. وكل إمام له ستة خلفاء حتى الظهور التالي للإله في هيئة البشر. وهكذا كان يوحنا



المعمدان آخر إمام قبل ظهور المسيح، وكان علي أول إمام عند محمد يليه بقية أئمة الشيعة الإسماعيلية الذين كان آخرهم إسماعيل قبل ظهور المهدي المنتظر سيد الحاضر وبالتالي «سيد الزمان».

أما إمام هذا المهدي ومعاونه فهو عبد الله بن ميمون الذي له على الناس حق الطاعة العمياء مثل المهدي. ومن عنده ينطلق الدعاة الذين ينتشرون في كل مكان ويظهرون تحت مختلف الأقنعة ساعين إلى كسب الأنصار. وعند تنسيب الأتباع إلى الدين الجديد يطلب منهم المحافظة على السرية التامة وعدم البوح بأي معلومة أمام غير المنتسبين، والإخلاص المطلق للداعي، ثم دفع مبلغ من المال لصالح الجماعة يتناسب مع القدرة المالية للعضو. لكن الدعاة لا يعطون ضحاياهم على الفور كامل المعرفة، بل يتعين على المنتسب المرور في أربع درجات للوصول إلى الطبقة العليا من النظام الديني. وعندما يصل إلى هذه المرتبة تبدأ الدروس اللاحقة التي تمر في خمس درجات أخرى عبر خليط من الأفكار الوثنية القديمة والفلسفة الإغريقية والفلسفات المبتدعة الجديدة بحيث ينتزع من المرء إيمانه بأي دين آخر. وحتى في الدرجة الرابعة يكون المنتسب قد فقد إيمانه بالإسلام. وحتى المنهاج التعليمي للدرجة الأولى من الدرجات الأربعة يجعل المستمع، بسبب ما يتخلله من تفسيرات مرمزة، لا يعرف سوى شيء واحد: أبدية المادة واستحالة التعبير عن جوهر الأشياء بالمفاهيم الدينية.



المطلوب أن تكون الثمرة الروحية لهذه التربية التشكك الكامل والمادية المطلقة والأنانية المفرطة[1].

كان الغرض الحقيقي لهذه التربية بالنسبة لابن ميمون وخلفائه تشويش الأغبياء أو البسطاء إلى أبعد الحدود وتأهيل الأذكياء ليصبحوا، إما بسبب الخوف أو التعصب أو المنفعة الشخصية، خاضعين كلياً لإرادته. وقد حقق هذا الهدف فعلاً. مارس هذه الحماقات بمساعدة أتباعه في بادئ الأمر في فارس حيث اضطر فيما بعد إلى الهرب من هناك. لكنه استقر بعد ذلك في السلمية في سورية التي كانت تسود فيها أفكار إسماعيلية في أزمنة سابقة (قبل عام 873م). اعتباراً من الآن أصبحت السلمية، ولفترة طويلة، مقر المعلم الكبير للفرقة المخيفة ومركز الدعوة الإسماعيلية. فمن هنا تابع خلفاء ابن ميمون العمل على تفكيك أوصال السلطة العباسية. وهناك حكاية تقول إن أحد دعاة الخليفة الثاني لابن ميمون نجح في كسب تأييد فلاح اسمه حمدان كان متضرراً من السياسة الاقتصادية السيئة لحكومة بغداد. ويقال بأن حمدان كان يعاني من جميع العلل الجسدية الممكنة وأنه أصبح فيما بعد داعية الفرقة في شرقي بلاد الرافدين والمناطق المحيطة بها. وبسبب عيوبه الجسدية حصل حمدان على لقب القرمط ونسبة له حصل إسماعيليو ابن ميمون على اسم القرامطة[2]. وشيئاً فشيئاً تزايد

---

(1) انظر مولر، نفس المصدر السابق، الجزء الأول، ص589 وما بعدها.

(2) بخصوص أصل كلمة القرامطة انظر دي غوييه، مذكرات عن قرامطة البحرين والإسماعيلية، لايدن 1886م، ص199.



أتباع تعاليم ابن ميمون في جنوب بلاد الرافدين (العراق) أيضاً وفي شبه الجزيرة العربية بحيث إنهم صاروا في عام 890م يظهرون علناً هناك ويؤسسون مراكز ثابتة لهم. عندئذ رأى أحمد، ابن أو حفيد عبد الله، أن الوقت قد حان لنقل جميع الصفات الصوفية، المنسوبة في تعاليم ابن ميمون إلى الأئمة من أحفاد النبي محمد، إلى أفراد أسرته نفسه. ولهذا الغرض ادعى القرابة مع النبي محمد لكنه لم يجرؤ في بادئ الأمر على الزعم بأنه ينحدر من سلالة علي زوج ابنة الرسول بل أرجع شجرة نسبه إلى عقيل بن أبي طالب، أحد أخوة علي. لكن هذا لم يرق لحمدان القرمطي ورفض الاعتراف بهذا التجديد. على أثر ذلك اختفى حمدان ولم يعثر له على أثر. ولا شك في أنه قد قتل على يد أحد الأنصار المسلوبي الإرادة بناء على أمر من المعلم الأكبر[1]. ويوماً بعد يوم انتشرت الحركة القرمطية، أو القرامطة كما أصبح اسمهم فيما بعد، بصورة متزايدة في العراق؛ وفي البادية السورية وخاصة في البحرين، الجزء الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة العربية، انضم إلى القرامطة عدد كبير من البدو. ومما يلفت الانتباه أن العباسيين تركوا لهذه الحركة حرية واسعة نسبياً. وفي جنوب شبه الجزيرة العربية، وخاصة في اليمن، حيث كان للعلويين منذ زمن طويل كثير من الأتباع وحيث لم يزل يوجد حتى اليوم في بعض الأماكن عائلات

---

(1) انظر مولر، نفس المصدر السابق، الجزء الأول، ص594.



الشرفاء المتحدرين من سلالة النبي محمد والمعتمدين كأمراء في مناطق متفرقة صغيرة، استطاعت الفرقة ترسيخ أقدامها.

بعد وقت قصير من بداية القرن العاشر الميلادي بدأ عصر جديد بالنسبة للقرامطة: كان المعلم الأكبر آنذاك رجل اسمه سعيد[1]، يقال بأنه ابن أخ أو حفيد، أو ابن حفيد، أحمد المذكور لكن خصومه يقولون إنه لم يكن له حتى ولا هذا النسب بل كان طفلاً غريباً احتضنته أسرة المعلم الأكبر ونشأ في كنفها، لا بل إنه كان حسب بعض الروايات ابن حداد يهودي من السلمية. إلا أن سعيد الذي كان على أي حال قد أعدّ منذ أول شبابه لدور المعلم الأكبر للفرقة، حقق الخطة التي كان يحلم بها عبد الله بن ميمون: فقد أسس مملكة متماسكة الأجزاء ولكن ليس في آسيا وإنما في شمال إفريقيا.

كان الدعاة المرسلون إلى هناك، وخاصة الداعية المخلص عبد الله الشيعي، قد هيأوا له الجو لتأسيس الدولة هناك. في عام 902م غادر السلمية بلا رجعة لكي يذهب إلى إفريقيا. وعندما وصل إلى هنا أصبح إنساناً آخر. إذ سمى نفسه عبيد الله المهدي وأرجع شجرة نسبه إلى علي وفاطمة مباشرة أي لا إلى عقيل، أخي علي، كما كان الأمر حتئذ. وعرف كيف يلعب بذكاء دور

---

(1) انظر فوستنفلد، تاريخ الخلفاء الفاطميين حسب المصادر العربية، غوتنغن 1881، ص3.



المخلّص الموعود. فقد طلب من أتباعه أن يحبسوه عدة أعوام في سجلماسة، تفليلة الحالية، إلى أن حان وقته حيث حرره من سجنه دعاته المخلصون لكي يتولى بنفسه زمام الأمور في الدولة الجديدة. اتخذ مقره في المهدية قرب القيروان. ثم قام البربر الناقمون على حكم الأغالبة بتعزيز وتقوية سلطته أكثر فأكثر مما دعاه إلى التفكير بتوسيع مملكته نحو الغرب والشرق.

وعلى الرغم من أنه أصبح بهذا الشكل حاكماً دنيوياً فقد ظل مع ذلك المعلم الأكبر للفرقة التي كانت مزدهرة في الشرق الأوسط وفارس. وكان عبيد الله محظوظاً من جميع الجوانب. فكما أنه لم يقع في أيدي العباسيين خلال مروره عبر مصر، شنت الحكومة العباسية حملة على القرامطة بعد خروجه من سلمية مباشرة. في البداية كانت المعركة سجالاً بين الطرفين ولكن في النهاية قضي على العش الموجود في السلمية الذي كان لم يزل يعتبر بالنسبة للعالم الخارجي المقر الرئيسي للفرقة. لا شك في أن وضع الإسماعيليين في سورية أصبح آنذاك سيئاً جداً وكذلك وضع عرب البادية السورية الذين كانوا متحالفين معهم. ومن المحتمل أن تكون أجزاء كبيرة من البدو السوريين قد لجأوا آنذاك إلى أقربائهم العرب الذين كانوا، كما رأينا سابقاً، قد أقاموا موطناً جديداً لهم في منطقة المردة الجبلية الوعرة في لبنان. ومن الممكن أن يكون هذا النزوح إلى جبل لبنان قد تكرر في وقت لاحق نتيجة



المعارك اللاحقة مع القرامطة في سورية. وأنا أقول هذا لأن مصدر معلوماتي المذكور أعلاه أكد مراراً وتكراراً، وبما يتطابق مع أقوال كثير من الدروز الآخرين، أن القبائل العربية في لبنان والمناطق الجبلية المجاورة له كانت لديها، قبل مجيء الديانة الدرزية، ميول باتينيدية[1] أو بالأحرى إسماعيلية[2].

بعد الهزائم الأولى التي مني بها القرامطة في سورية نقلوا مركز نشاطهم إلى لحسا في البحرين على الخليج العربي التي يصعب على جيوش الخليفة العباسي الوصول إليها. من الواضح أن التعاليم الإسماعيلية اتخذت آنذاك هنا شكلاً يناسب طبيعة البدو إذ أصبح بدو نجد والبوادي والواحات المحيطة بها اعتباراً من الآن ولفترة طويلة من الزمن الحملة الحقيقيين للفكر القرمطي. كان سكان شبه الجزيرة العربية المستقرون أو نصف الرحل قد حافظوا على طبيعتهم البدوية الطبيعية وعلى القوة التي جعلت تعاليم محمد تسيطر على جزء كبير من العالم. وكانت شبه الجزيرة العربية مهد الشعوب العربية جميعها قد نشأ فيها مقاتلون جدد حلوا محل المقاتلين الأوائل ومحل الجيل الأول بعد الرسول الذين كانوا قد هاجروا إلى خارج الجزيرة وأصبح أبناؤهم وأحفادهم من بعدهم، نتيجة الاحتكاك بشعوب أخرى أكثر تطوراً، ذوي تفكير

---

(1) انظر مولر، نفس المصدر السابق، الجزء الثاني ص61
(2) انظر أيضاً سيلفستر دو ساسي في دراسته عن ديانة الدروز.



سياسي أممي ولأن عودهم نتيجة الحياة المرفهة والعيش في المدن. في عهد النبي محمد ـ ولكن أيضاً في مطلع القرن التاسع عشر عندما ظهر الوهابيون المتقشفون وأسسوا مملكة عربية ضمت الأماكن المقدسة في الحجاز ولم يوقف مدها إلا بعد معارك طويلة استمرت عدة سنوات وقام بها المصريون بأمر من السلطان ـ تبين أن عرب الصحراء لديهم استعداد لقبول الأفكار الصوفية وخاصة عندما تتيح لهم هذه التعاليم الفرصة لأن يمارسوا أحب عمل لهم وهو الغزو. ومن الواضح أن القرامطة أدركوا هذا الميل واستغلوه لمصلحتهم. تنامت دولة القرامطة في بادئ الأمر تحت قيادة دعاة، ولكن في وقت لاحق تولى قيادتها مجلس مؤلف من ستة أشخاص أو أكثر، والغريب في الأمر أنهم كانوا متفقين فيما بينهم. وانطلاقاً من الحسا انتقم القرامطة للهزيمة التي منيوا بها في سورية، وظلت سورية والمناطق المحيطة بها أعواماً طويلة تدفع الضرائب لهم. ويبدو أن القرامطة في البحرين ظلوا يرون في عبيد الله وخلفائه زعماءهم الروحيين. إذ عندما تجرأوا في عام 930م على سرقة الحجر الأسود من جدار الكعبة في مكة وأخذوه إلى الحسا لم يعيدوه إلى مكانه، على الرغم من احتجاج العالم الإسلامي بكامله، إلا بعد أن أمر بإعادته إلى مكة في عام 951م حفيد عبيد الله، منصور. على الرغم من ذلك حدث في عهد المعز، ابن منصور، نزاع بين قرامطة البحرين وأحفاد ابن ميمون.



إذ إن جيوش الفاطميين ـ هذا هو الاسم الذي أطلقه أبناء عبيد الله على أنفسهم بناء على انتسابهم الكاذب إلى فاطمة ابنة الرسول ـ كانت خلال حكم المعز قد احتلت مصر وانتزعت أيضاً سورية من أيدي أعدائهم الألداء العباسيين[1]. على إثر ذلك توقفت هذه المنطقة عن دفع الضرائب للقرامطة مما أدى إلى نشوب نزاع بين حكام البحرين والفاطميين. كانت الحرب سجالاً بين الطرفين، مرة لهذا وأخرى لذاك. وفي إحدى المرات وصلت قوات القرامطة إلى أبواب الفسطاط ـ القاهرة ـ لكن الحظ بقي وفياً لأسرة ابن ميمون: وقد اتخذ هذا الوضع فرصة تجاه الخارج لإقامة احتفالات ضخمة جداً بمناسبة انتقال «الخليفة» المعز إلى القاهرة (في عام 973م) كانت بداية للحكم الفاطمي الذي دام عدة قرون في بلاد النيل الغنية التي كان جميع سكانها من أهل السُّنة، الاتجاه الأرثوذوكسي في الإسلام، على عكس الفاطميين الذين هم من أهل الشيعة. بعد ذلك بوقت قصير توفي المعز. حقق ابنه عزيز انتصارات عديدة في الحرب ضد القرامطة التي كان أبوه المعز قد بدأها لكنه وافق (في عام 977م)[2] على دفع مبلغ سنوي لهم وأعاد بذلك إلى حد ما العلاقة الجيدة القديمة بين الفرقة الإسماعيلية وزعمائها الأصليين. إلا أن المعز والعزيز لم يستعملا

---

(1) في الحقيقة من أيدي الإخشيديين وهم أسرة استقلت عن الخلافة في بغداد وحكمت مصر فترة قصيرة.

(2) انظر فوستنفلد، تاريخ الخلفاء الفاطميين، ص140.



هذه المكانة إلا نادراً ـ وكان هذا دون شك مراعاة للسكان السُّنة في وطنهم الجديد.

كان الحاكم، حفيد المعز، أول من عمل بكل قوة على فرض الأفكار الإسماعيلية في مصر أيضاً. وكان الهدف النهائي، الذي سعى إليه المعز[1] وكذلك عبيد الله وأيضاً عبد الله بن ميمون نفسه، لم يزل قائماً حتى الآن ألا وهو: إسقاط العباسيين وتنصيب الأسرة الفاطمية مكانهم. لكن هذه الرغبة العليا للفاطميين لم تتحقق أبداً. إلا أن اسم الخليفة الفاطمي المستنصر صار في الوقت الذي بدأ فيه تدهور السلطة الفاطمية في عام 450هـ (1059م) يذكر في مساجد بغداد بعد صلاة الجمعة. لكن انتصار الفاطميين على العباسيين بهذا الشكل لم يكن إلا لفترة قصيرة جداً. فضلاً عن ذلك فإن الحدث لم يكن بأي حال نتيجة انتصارات فاطمية ولم تكن له أيضاً أي أهمية عملية[2]. إذ إن العباسيين، أو بالأحرى حراسهم ورجال بلاطهم الأقوياء، ردوا بقوة على الحقد الذي أبداه الفاطميون تجاههم. فقد استغلوا بلباقة محاولة التقرب التي قام بها الخليفة الفاطمي عزيز لكي يجعلوا العلويين في بغداد يعلنون في عام 980م (369هـ) أن شجرة نسب الفاطميين مزورة[3].

---

(1) انظر فوستنفلد، نفس المصدر السابق، ص130.

(2) انظر فوستنفلد، نفس المصدر السابق، ص242 وما بعدها.

(3) انظر فوستنفلد، نفس المصدر السابق، ص3 وما بعدها، ص142.



لا شك في أن دحر العباسيين كلياً عن طريق إحياء الأفكار الإسماعيلية شكَّل الفكرة الرئيسية في حياة الخليفة الحاكم (بأمر الله) أبو علي منصور. كان الحاكم (بأمر الله) الحاكم السابع في الأسرة الحاكمة التي أسسها عبيد الله والثالث بين الفاطميين الحاكمين في مصر، ويقال بأن أمه كانت مسيحية. تولى الحكم وهو صبي في الحادية عشرة من عمره وبعد ذلك بخمس سنوات صار يتصرف بشكل مستقل وقام بعدد من الأعمال الجنونية ولكنها أعمال توحي بشيء من العبقرية والقوة الداخلية الهائلة. كان المعز قد فرض عندما جاء إلى القاهرة الطريقة الشيعية في إقامة صلاة الجمعة، وفيما عدا ذلك لم يفرض أي شيء شيعي آخر، لا هو ولا ابنه عزيز. أما الحاكم فقد عيّن معلّمين لنشر الأفكار الإسماعيلية في جوامع القاهرة، وفجأة وقف رجل إسماعيلي جاء من فارس، كان من الناحية القومية ربما تركياً، وكان يسمى «الدرزي»، وراح يدعو إلى نظرية التجسيد القديمة ثم طبقها على الحاكم الحالي الخليفة الحاكم (بأمر الله) نفسه. كان هذا بالنسبة لسكان القاهرة السُّنة مغالاة غير مقبولة، فانقضوا على الدرزي وكادوا يقتلونه لكنه استطاع الهرب إلى سورية ومعه مبلغ كبير من المال زوّده به الخليفة. هناك لجأ إلى منطقة جبل حرمون حيث كسب في عام 1017م[1] في وادي التيم أول الأتباع الذين آمنوا

---

(1) انظر مولر، نفس المصدر السابق، الجزء الأول، ص632. هذا التاريخ ذكره لي في سورية أيضاً الدروز أنفسهم. أما فوستنفلد (تاريخ الخلفاء=



بألوهية الحاكم. بعد ذلك كرر الحاكم بأمر الله المحاولة التي فشلت في المرة الأولى والرامية إلى إحياء الأفكار الإسماعيلية بالشكل المذكور، فظهر نبي آخر في القاهرة لكنه اختفى بعد وقت قصير دون أن يحظى بأي أهمية خاصة؛ وفي عام 1019م ظهر رجل آخر، وهو فارسي اسمه حمزة، ولم يحقق سوى قليل من النجاح لكنه استطاع، بفضل الحكم الرهيب للحاكم بأمر الله، نشر أفكاره فترة من الزمن، غير أنه ما لبث أن اضطر إلى الهرب أيضاً وتوجه إلى الدرزي في سورية.

في عام 1021م وصل العمل الحكومي العام للحاكم بأمر الله إلى نهايته. وكما كانت حياته غريبة كان موته غريباً أيضاً. في صباح أحد الأيام ركب على حمار أبيض وذهب إلى جبل المقطم المجاور للقاهرة والمليء بالمغائر والشعاب ولم يعد من هناك أبداً. فُسّر هذا الاختفاء في المستقبل بأنه اقتداء بآخر أئمة الاثني عشرية والإسماعيلية. فقد قيل إنه لم يمت وإنما توارى عن الأنظار فقط. ولكنه بذهاب الحاكم دفنت آمال الإسماعيليين في الغرب. وكان القرامطة في البحرين قد خرجوا من المسرح[1]. إذ إن تنظيمهم الدنيوي وإقامتهم دولة حقيقية أزال عنهم تلك القوة الصوفية الجذابة. كما أن قبائل بدوية قوية كقبيلة المنتفق

= الفاطميين، ص206) فيضع هذه الأحداث في وقت لاحق، في آخر عام من عهد الحاكم.

(1) انظر دي غوج، نهاية القرامطة، الصحيفة الآسيوية 1895م (العدد 1).



التي قاتلت في الماضي إلى جانب الإسماعيليين حققت انتصارات في حربها ضد سادة البحرين. وفي مكة نفسها التي كان السُّنة مستائين من سيطرة الإسماعيليين عليها وصل إلى الحكم أشراف علويون يعود نسبهم بشكل مؤكد إلى النبي محمد. بعد عدة عقود استعادت الإسماعيلية بعض قوتها ولكن هذه المرة في موطنها الأصلي في فارس، مركز الأفكار الشيعية الأولى، وبالصيغة التي أعطاها إياها ابن الصباح المخيف «شيخ الجبل» مؤسس فرقة الحشاشين[1].

حسن بن الصبّاح، فارسي طموح، عرف، مثله مثل عبد الله ابن ميمون، كيف يستغل لصالحه الأفكار الإسماعيلية الموجودة وأتباعها ويؤسس مشيخة توارثها أفراد أسرته من بعده. كان حسن الصباح قد احتك عام 1078م مع الفاطميين في مصر لكنه اختلف هنا مع الشيعة المعتدلين في البلاط القاهري الذين نصبوا على العرش الابن الأصغر للخليفة المستنصر بدلاً من نزار الذي كان

(1) انظر بخصوص الحشاشين ي. فون هامّر، تاريخ الحشاشين من المصادر الغربية، شتوتغارت وتوبنغن 1818م، ص330 وما بعدها؛ م.سي. دفريموري، أبحاث جديدة عن الإسماعيليين والباطنيين في سورية المشهورين تحت اسم الحشاشين، باريس 1855م؛ ست غويارد، معلم الحشاشين الكبير في زمن صلاح الدين، المجلة الآسيوية باريس 1877م، ص324 وما بعدها؛ فان برشم، كتابات الحشاشين في سورية، المجلة الآسيوية، مايو ـ يونيو 1897.



حسب الأفكار الإسماعيلية، كونه الابن البكر، صاحب الحق في أن يرث العرش[1]، وأيضاً الصفة الإلهية للأب. أدرك حسن أن الفاطميين فقدوا نهائياً أهميتهم بالنسبة للإسماعيلية ولذلك ذهب إلى فارس حيث كانت الأفكار الإسماعيلية ما زالت حية كما في العراق. متسلحاً بمرونة عالية ومطلعاً على علوم زمانه، بالإضافة إلى كونه جريء ولا يعرف الرحمة، تمكن حسن بن الصباح في عام 1090م من الاستيلاء على حصن أَلَموت الواقع في جبال البرز الفارسية شمال غرب قزوين. كان يعطي أنصاره الحشيش، زاعماً أنه مستحضر القنب، بحيث يشعرون بنشوة جنونية ويعيشون في الحلم، ربما بإعطائهم مواد إضافية أخرى، أقصى درجات البهجة والسرور مما يجعلهم، تحت تأثير الحشيش وتأثير زعيمهم، مستعدين لتنفيذ أي مهمة تطلب منهم. ونسبة إلى الحشيش أطلق على أتباع حسن الصباح اسم «الحشاشين»، التسمية التي حوّرها الصليبيون الفرنجة إلى «أسّاسانيين» ثم دخلت إلى اللغة الفرنسية بكلمة «أسّاسان» (مجرم).

بعد وقت قصير مدّ الحشاشون نشاطاتهم إلى ما وراء الحدود الفارسية. وفي عام 1102 وصلوا إلى سورية بواسطة أمير في حلب أراد الاستفادة منهم كرفاق له. وفي عام 1126م احتلوا مدينة بانياس (الشام) قرب جبل حرمون لكنهم اضطروا إلى التخلي

---

(1) انظر مولر، نفس المصدر السابق، الجزء الثاني، ص100.



عنها بعد ثلاثة أعوام. وبعد ذلك بوقت قصير استولوا على القصر الجبلي القدموس وأخيراً في عام 1140م على المعقل الصخري مصياف في جبال النصيرية[1] الذي أصبح مركزاً لنشاطاتهم التخريبية في سورية. ثم نشأ بعد ذلك في سورية العديد من القصور الواقعة في مناطق وعرة يصعب الوصول إليها والتي أصبحت قواعد لأعمالهم الخطيرة الموجهة في المقام الأول ضد الحكم المسيحي الإفرنجي. العديد من الصليبيين اغتيلوا بسيوفهم. فقد كان أتباع «شيخ الجبل» ـ هذا هو الاسم الذي أطلق على حسن الصباح ـ يعرفون أين يصطادون ضحاياهم، في أماكن الازدحام الكثيف أو في الحصن الملكي، أو أمام المذبح في الكنيسة. فما الذي كان يدفع الفدائيين للتضحية بحياتهم طاعة لزعيمهم؟ كانوا واثقين بأنهم سينعمون على الدوام بتلك السعادة التي كانوا قد

---

(1) يعتنق سكان جبال النصيرية ديانة ذات طبيعة إسماعيلية أيضاً ولكنها ممزوجة بكثير من الأفكار المسيحية إلى درجة أن المرء يكاد أن يقتنع بأنها نشأت على أساس مسيحي. فقد يكون النصيريون أحفاد الآراميين المسيحيين الذين كانوا يقيمون في شمال لبنان. وليس مستبعداً أن يكون الحشاشون قد أملوا، عندما وسعوا دائرة نفوذهم إلى جنوب حلب، في أن يجدوا عند النصيريين قاعدة لهم. لكن النصيريين وقفوا ضدهم. بخصوص النصيريين انظر سليمان العدني، الباكورة السليمانية في ديانة النصيرية بلا مكان ولا تاريخ (بيروت، المطبعة الأمريكية)؛ انظر أيضاً كليمنت هيوارت، الشعر الديني للنصيرية في المجلة الآسيوية 1879م، الجزء الثاني ص190 ـ 261. فولف، مقتطفات من تعاليم النصيرية، في مجلة الجمعية الجغرافية.



تذوقوها في ذروة الانتشاء بالحشيش[1]. ونظراً لأن معظم الصليبيين كانوا غير متعلمين فقد صاروا ينسبون إلى الحشاشين كل جريمة قتل مجهولة الفاعل، لكنهم صاروا في الوقت نفسه يعتبرون جميع الناس الذين يعتنقون ديناً غير مفهوم بالنسبة إليهم من الحشاشين. تمَّ القضاء على الحشاشين أثناء الزحف المغولي. في عام 1256م دمر هولاكو خان حصن ألَموت المخيف وقتل المعلم السابع والأخير للفرقة[2]، كما قضى على الإسماعيلية كلياً في جميع أرجاء فارس. وفي آسيا القريبة أيضاً لوحق الإسماعيليون في كل مكان. في سورية قاومت بعض الأوكار الصخرية للحشاشين الزحف المغولي ولكن هذه الجماعة الرهيبة ضعفت

---

(1) يصف ماركو بولو الذي عاصر آخر «شيوخ الجبل» في رحلته إلى الشرق فنون الإغراء التي كان يستعملها آخر سادة ألموت في تربية أتباعه الفدائيين. كان لدى «شيخ الجبل» قرب قصره حديقة سحرية يعيش فيها شباب لا يسمح لهم أبداً بمغادرتها لكنهم يتمتعون فيها بكل مسرات الحياة ولذائذها. كان الرجال الشجعان الذين لا يهابون الموت، والذين كان المعلم يريد استعمالهم أدوات في يده، يُجلبون مخدرين بشراب معيّن إلى هذه الجنة حيث يقضون مع سكانها الدائمين عدة أيام يتمتعون خلالها بكل الملذات ثم يخدرون مرة أخرى وينقلون إلى خارج الحديقة الفردوسية. كان وعدهم بالتمتع بنفس الملذات إذا ما ماتوا في خدمة «شيخ الجبل» يدفعهم إلى تنفيذ أجرأ العمليات. (انظر ماركو بولو، رحلة في الشرق خلال الأعوام 1272م ـ 1295م)، إصدار فليكس بيرغيرين، لايبزيغ 1802م، ص37 وما بعدها.

(2) انظر مولر، نفس المصدر السابق، الجزء الثاني، ص230.



جداً إلى درجة أن السلطان المملوكي الجبار الظاهر بيبرس، ملك مصر، استطاع في عام 1273م الاستيلاء على آخر حصونهم والقضاء على كل تنظيم لهم. وقد يكون بيبرس أو خلفاؤه قد استعملوهم بين حين وآخر لتنفيذ بعض عمليات الاغتيال. أما اليوم فإن المجموعات الإسماعيلية القليلة التي لم تزل موجودة في سورية حتى اليوم تتألف من مواطنين وفلاحين مسالمين[1].

أما الآن فلنعد إلى رسول الحاكم بأمره. كان الدرزي[2] قد كسب في سورية كثيراً من الأتباع وسميت التعاليم التي نشأت هناك باسمه[3] على الرغم من أنه عارض الحاكم وأنه قد لُعن بعد وقت قصير من وصول حمزة ومات على أرجح الظن قتلاً.

يعدّ حمزة المؤسس الحقيقي للديانة الدرزية التي يمكن

---

(1) بصرف النظر عن الدروز يعدّ النصيريون الفئة الأكثر عدداً من أتباع الأفكار الإسماعيلية القديمة التي لم تزل موجودة في سورية حتى اليوم. أما المتاولة والفرقة التي تسمي نفسها اليوم إسماعيلية هم أقل عدداً إلى حد كبير. ويبدو أن من يسمون «الإسماعيليين» هم، حسبما يتبين من تقاليدهم، الأحفاد الحقيقيون للحشاشين بينما يشكل المتاولة بقايا الفرقة القرمطية التي تشكلت في غرب سورية في القرن العاشر الميلادي.

(2) بخصوص معنى كلمة «درزي» انظر فوستنفلد، فخر الدين، أمير الدروز، ومعاصروه، ص8.

(3) يرد ذكر التسمية «درزي» عند بنيامين فون توديلا الذي توفي عام 1173م. أما اشتقاق كلمة «درزي» من البارون المسيحي دي دروز فما هي إلا خرافة نشأت في عهد فخر الدين الذي استغلها لكسب تأييد المسيحيين في حربه ضد الأتراك.



اعتبارها فرعاً أو استمراراً للفكر الإسماعيلي. إلا أن هذه الديانة الجديدة فقدت القيادة الإسماعيلية المعادية للعباسيين ولحكم العرب وركّزت اهتمامها، بدلاً من الجانب السياسي، على الجانب الفلسفي للأفكار الإسماعيلية القديمة. كان أتباعها الأوائل في وادي التيم عرباً كانت لهم دون شك علاقة مع القبائل العربية التي جاءت إلى منطقة المردة في جبل لبنان. لا بد من أن هذه القبائل العربية كانت آنذاك، كما ذكرنا سابقاً، متأثرة جداً بالأفكار الإسماعيلية[1].

يعتقد الدروز أن الحاكم أرسل دعاة آخرين إلى مختلف المناطق، إلى إيران وأفغانستان وإلى أماكن أبعد شرقاً، إلى الهند والصين، وأيضاً إلى اليمن وأجزاء مختلفة من إفريقيا. وحسب رأي مصدر معلوماتي الدرزي لم تزل التقاليد الدرزية موجودة حتى اليوم في إفريقيا في جزيرة جربا التونسية، فالمسلمون في اليابسة يطلقون على سكان الجزيرة اسم «الخوارج»، وهو اسم أطلق على الدروز أيضاً»[2]. ومن المؤكد أن الخوجة[3] والبُهرة في الهند أقرباء لهم.

---

(1) انظر كتاب من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج، ج 1، ص144 و145 وما بعدها.

(2) من المنظور السني تنطبق هذه التسمية على جميع الكفار.

(3) يدعي مصدر معلوماتي أن الخوجة، وإن كانوا لا يتفقون مع الدروز في كل شيء، كانوا يحجون إلى نجران في اليمن لكي يمجدوا الداعي الحاكم هناك الذي يعتبر تجسيداً للإله من نوع خاص يتجدد دوماً وأبداً في خلفائه. ولقد تحدثت شخصياً مع أحد الخوجة عن الأسس الدينية=



= لهذه الفرقة التي تلقي عليها أيضاً الضوء محاكمة أجريت في حزيران 1866م أمام المحكمة العليا في بومباي. أجريت هذه المحاكمة بهدف تبيين ما إذا كان الخوجة سنيين أم شيعة وما إذا كان آغا خان له الحق في أن يسمي نفسه إمام الخوجة وحسب هذه المصادر تمّ التوصل إلى المعلومات التالية: الخوجة هم أحفاد الهندوس الذين اعتنقوا المذهب في البداية في كوتش على يد مبعوث اسمه صدر الدين. ترك لهم هذا الداعي كتاباً اسمه «أهل داس فاتر» (أي «أصحاب التجسيدات الإلهية العشر») يصف «الفشنو» أي أطوار التجسد التسعة وظهور الإله على الأرض بهيئة الخليفة علي. الكتاب مكتوب بحروف سندية وبلغة عامية مركبّة من الكوتشي. والقوزراتي. لم يزل الجزء الأخير من هذا الكتاب المقدس يتلى حتى اليوم في مراسم الدفن عند الخوجة. يسمي الخوجة أنفسهم «إمامي إسماعيلي» وأعلى كائن عندهم هو الآغا خان الذي يعتبرونه «الفيض المجسد للألوهية». وهم يعتقدون أن الآغا خان يعود نسبه بصورة مباشرة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وتربطه، فضلاً عن ذلك، صلة قرابة مع «شيخ الجبل». بعض خانات الخوجة كانوا يقيمون في خيخ في فارس حيث كان أتباعهم يزورونهم لتقديم الهدايا والأموال لهم. يقال بأن الحج إلى مكة هو من الحالات النادرة عند الخوجة، كما أن الحج إلى كربلاء وغيرها من الأماكن الشيعية المقدسة قليل جداً عندهم أما الحج إلى نجران والعلاقة مع الدروز فلا يعرف عنهم الخوجة الحاليون أي شيء. كان الآغا خان الذي توفي مؤخراً، وهو بالمناسبة رجل غني جداً، متنور، ومهتم جداً بالرياضة الأوروبية، متزوجاً من ابنة شاه إيران وكان أبوه وجده يشغلان منصب القائمقام في كرمان في فارس. ليس معروفاً عدد الخوجة في الهند، في عالم 1866م قدّر عددهم بأربعة آلاف فقط، أما الآن فيصل عددهم في بومباي وحدها إلى عشرة آلاف على الأقل. وهم غير متعصبين وليس لهم أي أهمية سياسية، لكنهم تجار جيدون ويجيدون اللغات الأجنبية. وفي الآونة الأخيرة استوطن عدد كبير منهم في زنجبار وفي شرق إفريقيا الألمانية حيث يسيطرون على جزء كبير من الحركة التجارية. ويقال بأن=



لم يحقق الحاكم نجاحاً دائماً بواسطة الدعاة الذين أرسلهم هو نفسه إلا في سورية. أما ديانته التي وجدت أتباعها الأوائل في وادي التيم ثم انتشرت بسرعة بين عرب لبنان فلم تزل حتى اليوم تحتفظ بوفاء للمبدأ والأخلاق يثير الإعجاب؛ لكنها لم تخرج خارج إطار لبنان والمنطقة المجاورة له. ويقدر مصدر معلوماتي الدرزي العدد الإجمالي لأبناء طائفته بحوالي 132,000 شخص. وحسب تقديره يوجد في لبنان في أقضية الغرب، والجرد، والمتن، والشحار، والمناصف، والشوف، والعرقوب، نحو 40000 درزي. إضافة إلى ذلك هناك نحو 30000 درزي في النواحي الواقعة على سفوح جبل حرمون، حاصبيّا وراشيّا وقطنة. وفي حوران ذاتها يوجد نحو 40,000، وفي القرى المجاورة لدمشق، جرمانه، وصحنايا، والأشرفية، ودير علي، والخ... نحو 5000، وهناك أيضاً في جبل العلا بالقرب من حماه نحو 2000، وفي صفد قرب عكا نحو 15000 درزي.

* * *

تؤكد ديانة الدروز بشكل صارم على وحدانية الله. وهم يسمون أنفسهم «موحدين» ولا يحبون تسميتهم «دروز». وحسب رأيهم تشكل ديانتهم الصيغة العليا للفلسفة؛ فهم يزعمون أن إخوان الصفا، والمدارس الفلسفية الصوفية المختلفة في الإسلام

= كتاب التاريخ العربي «خطط وآثار» يتضمن وصفاً كاملاً لحياة مؤسس فرقة الخوجة. أما البُهرة فهم شيعة إسماعيليون لكن عاداتهم الدينية الظاهرية لا تختلف إلا قليلاً عن العادات الإسلامية.



والمفكرين الإغريقيين والهنود والفرس الكبار، هم جميعاً أسلاف لأفكارهم. ويقولون بأن تاريخ العالم يمرّ في سبعين مرحلة وفي كل مرحلة من هذه المراحل يظهر الإله مرة واحدة بهيئة بشرية[1]. ولكن لا يحدث تجسد بالمعنى الحرفي للكلمة بل إن الله يتجلى كشبح على الأرض دون حاجات بشرية. فمن الممكن اختراق هيئته بالإصبع دون اصطدام الإصبع بلحم. ومن بين التجسيدات التي حدثت في الماضي التجسد بهيئة أرسطو وبعض علماء الهنود وأخيراً، تجسد الخليفة الفاطمي الحاكم. وعند اختفاء الحاكم أغلق «باب العقيدة»، فمنذ ذلك الحين لم يعد يوجد معتنقون جدد. فقط أولئك الذين اعتنقوا آنذاك العقيدة الصحيحة وأبناؤهم من بعدهم هم دروز، لكن هؤلاء يبقون دروزاً حتى ولو غيّروا ديانتهم لأسباب دنيوية غير مبالين بالعقاب الأبدي. ولعل السبب الرئيسي في إيمانهم باصطفائية الشعب الدرزي يعود إلى أن الديانة الدرزية ظلت محصورة ضمن منطقة ضيقة نسبياً لم تتعدها.

إلى جانب الإله يحظى، بالدرجة الأولى، خمسة رجال بالتكريم والتعظيم وهم الرجال الذين ينفذون إرادته أي وزراء الألوهية في العالم المرئي[2]. وروح هؤلاء «الوزراء» تحلّ بانتظام

---

(1) انظر دي ساسي، نفس المصدر السابق، الجزء الأول، ص18 وما بعدها.

(2) انظر دي ساسي، نفس المصدر السابق، الجزء الثاني، ص1 وما بعدها وأماكن أخرى متفرقة. ثم «الوسطاء» عند فولف، «الدروز وسابقوهم»، لايبزيغ 1845م، ص353.



عند كل تجسد للإله في نفس المناصب على الأرض. في عهد الخليفة الحاكم احتل المكانة الأولى بينهم حمزة، المؤسس الفعلي للديانة الدرزية والذي ظهر في السابق بهيئة عيسى المسيح وفي أيام النبي محمد بهيئة سلمان الفارسي. وهو يعدّ الوزير الأكبر للإله ويمثل «العقل». وتسمى كينونته التي تتكرر دوماً «مولاي عقل». أما وزير الإله الثاني فهو «مولاي النفس» الذي كان يسمى في عهد النبي محمد: مقداد الأسود[1] وفي أيام الحاكم بأمره محمد بن وهب. يليه في المرتبة الثالثة «مولاي كلمة»، وهذا هو «سيد البلاغة». وبالفعل فإن الدروز يعلقون أهمية كبيرة على الكلمات الجميلة؛ ولكن وكأن أجمل كلمة عندهم هي كلمة «سيف»، إذ إن «مولاي كلمة» يسمى أيضاً «الروح المحاربة»؛ وكان يجسد هذا الاسم في عهد الحاكم بأمر الله أبو إبراهيم إسماعيل[2] وزير الحربية عند الخليفة المؤلّه[3]. أما الرجل الرابع في سلسلة الوزراء فهو «سيد العلم» واسمه «مولاي بهاء الدين»، وهو أيضاً الاسم الذي كان يحمله تحت حكم الحاكم حيث كان

---

(1) أحد صحابة النبي محمد، توفي عام 34هـ. انظر دي ساسي، نفس المصدر السابق، الجزء الثاني، ص252.

(2) «أبو إبراهيم إسماعيل» صيحة حرب عند الدروز. في تمردهم الأخير ضد الحكومة كان الدروز الحوارنة ما زالوا يستعملونها عند دخولهم المعركة.

(3) العرض الذي قدمه لي مصدر معلوماتي الدرزي يتناقض هنا مع دي ساسي، حسب أقواله كان أبو إبراهيم إسماعيل يجسد في عهد الحاكم مولاي النفس وكان محمد بن وهب يجسّد مولاي كلمة.



قاضياً في الإسكندرية[1]. وتنسب له أربعة من الكتب الدينية المقدسة للدروز.

وأما وزير الألوهية الخامس والأخير فهو «مولاي السابق» الصوفي الغامض الذي ظهر في عهد الخليفة الحاكم تحت اسم سلامة.

يعيش دروز اليوم في مقطعهم الزمني قبل الأخير. وكان الخليفة الحاكم آخر ظهور بشري للإله. عندما تبدأ المرحلة الأخيرة من تاريخ العالم ويظهر الرب على الأرض مرة أخرى بهيئة بشرية، أي عندما يظهر الحاكم ثانية، عندئذ سيأتي أخوة الدروز في العقيدة من الشرق الأقصى، من الصين، ويتحدون خلال رحلتهم مع بقية الدروز ثم يتوجهون جميعاً عن طريق هجر[2]، المدينة المقدسة عند القرامطة في البحرين إلى مكة حيث سيحتلون

---

(1) دي ساسي، نفس المصدر السابق، الجزء الثاني، ص240 وما بعدها يعطيه المرتبة الخامسة.

(2) تحظى مدينة الهجر بقدسية عالية إلى درجة أن المشايخ المحترمين بشكل خاص يحصلون على لقب الهجري. وبناء على ذلك فقد حصل جد شيخ حوران الأكبر الشيخ حسن القنوات الذي يعيش الآن في المنفى على هذا اللقب التكريمي لأنه حرض الدروز في اللجاة على مقاومة القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا بنبوءة تقول بأنهم لن يهزموا. وتقديس مدينة الهجر دليل آخر على قرابة الديانة الدرزية مع التعاليم والتقاليد الإسماعيلية. إذ إن هجر كانت إحدى عواصم الدولة القرمطية (انظر دي غوييه، مذكرات عن قرامطة البحرين والفاطميين، ص197. سيلفستر دي ساسي، نفس المصدر السابق، الجزء الأول، مدخل، ص240).



مدينة النبي ثم يتابعون طريقهم من هناك إلى القدس. في هذا الوقت سيكون جميع الحكام الأوروبيين في حرب مع حاكم المؤمنين (السلطان العثماني)[1]. سيقف الدروز الصينيون ضد جميع هؤلاء ويبيدونهم جميعاً أمام القدس[2]. وعندئذ ستعتنق البشرية بكاملها الديانة الدرزية. وبذلك ستوضع نهاية للعالم ويحدث فصلٌ للأرواح البشرية: أولئك الذين كانوا طيبين وعادلين في تجسداتهم السابقة - يؤمن الدروز بانتقال الأرواح، أو التقمص، لدى الناس العاديين أيضاً - وعوقبوا على خطاياهم سيعيشون حياة أبدية يمارسون فيها نفس الوظائف التي مارسوها على الأرض منعمين بسعادة بشرية لا حدود لها. أما الأشرار الذين لم يكفّروا عن ذنوبهم فسيتعرضون لعقاب شديد لقاء ما اقترفوه من جرائم.

أسس الديانة الدرزية مسجلة في «كتب الحكمة» الستة التي ينسب أربعة منها، كما ذكرنا سابقاً، إلى سيد المعرفة مولاي بهاء الدين. أما الكتابان الآخران فينسبان إلى الحاكم نفسه. وقد جرى نوع من الإصلاح في القرن الخامس عشر على يد الأمير عبد الله

---

(1) من الواضح أن هذه النبوءة يجب أن تكون حديثة التاريخ لأنه عند نشوء الديانة الدرزية لم يكن أحد يفكر بانتقال الخلافة إلى العثمانيين. أم إن هذا الانتقال تمَّ التنبؤ به أيضاً؟

(2) انظر بهذا الخصوص العرض الرائع عند بيترمان، رحلات في الشرق، لايبزيغ 1860م، الجزء الثاني، ص396.



الذي ينحدر من الأسرة التنوخية المرموقة. ويعود إليه الفضل في تفسير الكتب المقدسة وبالتحديد صياغة رائعة للتعاليم الأخلاقية. ويقال بأنه كان ينوي نفي ألوهية الحاكم لكن رجال الدين المتنفذين منعوه من تحقيق مشروعه. وعلى أي حال فقد كان هو نفسه مقدساً وما زال المسيحيون والدروز حتى اليوم يزورون قبره في قرية عبيه في لبنان.

لا يعرف أسرار الدين إلا العقّال[1]، وهؤلاء وحدهم يشاركون في اجتماعات المؤمنين التي تنعقد كل يوم خميس. ويسمى المكان الذي يجتمعون فيه، والذي يجب أن يكون هادئاً ومنعزلاً قدر الإمكان، الخلوة. يقابل العقّال الجهّال الذين يحرمون من ممارسة الطقوس الدينية لكنهم مع ذلك يشعرون بأنهم من أتباع الديانة الدرزية. فقط عند دفن أحد العقّال يطلب من الله أن يشمله بالعطف والرحمة. ولكي يصبح الدرزي «عاقلاً» يجب ألا يقل عمره عن 15 عاماً ويجب أن يطلب ذلك في الخلوة. يخضع المنتسب الجديد لفترة اختبار أطول أو أقصر يتعين عليه أن يكيف خلالها طريقة حياته مع المبادئ الصارمة للعقال، وفي

(1) كلمة «عاقل» (جمعها: عقّال) تعني من يتمتع بروح المعرفة والحكمة التي تثنيه عن التورط في المهالك. وهذه التسمية لحملة الديانة الدرزية الحقيقيين لها صلة بكون وزير الله الأول «مولاي عقل» يعتبر تجسيداً للروح. وهذا دليل على المكانة الرفيعة التي يعطيها الدروز للعقل والمعرفة، الأمر الذي يعتزون به بشكل خاص.



الوقت نفسه يتعرف في الخلوة على النظام الديني. وتبعاً لسمعته، وتقيده بالقواعد الأخلاقية، وتقدمه في اكتساب المعارف، قد يمر شهور أو سنين حتى يُقبل في دائرة العقّال. ومن الممكن أن يصعد النساء أيضاً إلى مرتبة العقّال. تعود كلمة الفصل في هذا الصدد إلى شيخ العقّال في المنطقة ذات العلاقة. وبما أن العقّال يشكلون أقلية صغيرة جداً فإن الجزء الأكبر من الدروز يبقى غير مطلع على حقيقة دينه. ففي الكتب المقدسة تعدّ المحافظة على السرية من أول الواجبات.

وكما أن العقيدة الدرزية تحتوي على كثير من الأفكار المستمدة من الديانات الوثنية ومن المدارس الفلسفية القديمة فإن المسيحية أيضاً تركت آثارها عليها، لكن مرتكزها الأساسي هو الإسلام. يعتبر الإنجيل والقرآن كتابين روحانيين دون أن يكونا مرجعين دينيين[1]. لكن الدروز يؤكدون للحكام المسلمين، لأسباب عملية، أنهم مسلمون وذلك لكي لا يبدون معارضين لهم دينياً. وبالفعل هناك كثير من التشابه بين الدروز والمسلمين في المظاهر الخارجية للممارسات الدينية، وبالتحديد فيما يتعلق بعادات الأعراس ودفن الأموات. وهذا الوضع يسهل على الدروز التأكيد في الأوقات الصعبة[2] على قربهم من المسلمين

---

(1) انظر دي ساسي، نفس المرجع السابق، الجزء الثاني، ص103 وما يليها.

(2) هذا ما حدث في ثورات حوران الأخيرة. انظر كتاب من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج، ج1 ص97.



دون أن يضطروا إلى التخلي عن عقيدتهم أو مخالفة تعاليمها. فالصبيان يُختنون أيضاً عند الدروز. وهم يحتفلون بعيد الأضحى بأقصى درجات الأبهة ويبقون قبل يوم العيد طوال الليل في الخلوة يقظين. بالمقابل يعفى الدروز صراحة من تطبيق أربعة أركان من أركان الإسلام وهي: الصلاة والحج إلى مكة والصيام والزكاة. ومن تعاليم أخرى يشتقون تقدمهم على بقية أتباع الديانة الإسلامية. فهم يحرمون العبودية ويساوون بين المرأة والرجل.

يؤمر الدروز صراحة بتعلم القراءة والكتابة. كما يعتبر حب الحقيقة والإخلاص للإخوان واجباً على كل درزي. وخاصة العقّال يحرصون على التقيد الصارم بهذه التعاليم. والعاقل لا يجوز أن ينهب أو يسرق؛ وتعد قلة الكلام والبساطة في المظهر والاقتصاد في الإنفاق من الفضائل، بينما تعتبر المبالغة في الحديث والكذب واستعمال ألفاظ السبّ والشتيمة من الصفات المكروهة. وحتى أعداء الدروز يعترفون أنهم في الحروب لا يعتدون أبداً على نساء خصومهم.

ومما يعدّ مقدساً بشكل خاص أن ينتج المرء بنفسه حاجاته المعيشية وأن يزرع ويحصد ويحضّر خبزه بنفسه. ويتجنب العقّال المتشددون التعامل مع المشايخ الذين، حسب رأيهم، لم يحصلوا على ثروتهم بطريقة نظيفة. والأتقياء جداً لا يحتفظون بمال



حصلوا عليه من شخص غير درزي، بل يبدلونه في البداية عند درزي آخر لم يصبح «عاقلاً» بعد.

بعض طبائع الدروز تجعل المرءَ يحبهم. وهناك عدد من الفضائل الشرقية النوعية القوية عندهم بشكل خاص وعلى رأسها: كرم الضيافة ومساعدة المحتاج والتهذيب الشديد جداً والاهتمام بالشكل الخارجي.

لقد سبق وذكرنا الاحترام الكبير الذي يكنّه الدرزي للمرأة. تعدد الزوجات مكروه، والطلاق صعب جداً، ولا يقبل سبب للطلاق إلا عقم المرأة أو عدم إخلاصها. تحصل الزوجة المطلقة على نصف ثروة الرجل. وإذا ما انفصلت المرأة عن زوجها أو كانت المسؤولة عن حدوث الطلاق يتعين عليها التنازل عن نصف ثروتها لزوجها. ويحرص الدروز بغيرة شديدة على عفاف نسائهم، وليس نادراً أن يقوم رجل بقتل زوجته أو أب بقتل ابنته أو أخ بقتل أخته إذا ما اشتبه بعدم أخلاقيتها. وفيما عدا ذلك فالدروز شعب جبلي خشن وقوي الجسم مع كل ما يتمتع به من فضائل وصفات سيئة، لديهم اعتزاز كبير بالنفس، شجعان ومحاربون، لكنهم عنفويون وسمعتهم سيئة بسبب ميلهم إلى السلب والثأر[1].

---

(1) عند الحكم على الدروز لا يجوز تطبيق المعايير الأوروبية كما يحدث في كثير من الأحيان وعلى أي حال فإن حبهم للسلب والنهب في الأوقات العادية أقل جداً من حب أبناء عمهم من البدو الذين ما زالوا يعيشون متنقلين حتى اليوم.



حتى أواخر هذا القرن كان النظام الاقطاعي ما زال سائداً عند الدروز كما كان في أوروبا في العصور الوسطى. كانت السلطة العليا في لبنان في يد حاكم ينتمي إلى أسرة أمراء قديمة أو جاءت حديثاً إلى الحكم، يعينه كوكيل له الحاكم السوري مقابل التزامه بدفع ضريبة معينة. وتحت الحاكم، الذي يشبه الدوق الكبير في أوروبا، يوجد أمراء أصغر وزعماء بعض العائلات المحترمة الذين يمارسون السلطة في بعض المناطق دون أن يحملوا لقب أمير.

كان يتبع الأمراء المشايخُ وهؤلاء كانت تتبعهم العائلات الفلاحية. كان الأمراء يجبون من أتباعهم ضرائب أو حصصاً من الإنتاج بشكل دوري ثم في المناسبات الخاصة. وكان يتعين على كل رجل بالغ وسليم جسدياً أن يقاتل تحت قيادة الأمير أو الشيخ في حالة الحرب. وكان الأمراء يعينون المشايخ بمنحهم لقب «شيخ». أما الوكيل الاقطاعي فكان ينتقل في عائلات مختلفة من جيل إلى آخر بالوراثة. وإذا ما أصبح الاقطاعي غير راض عن وكيله يعزله ويعين وكيلاً آخر محله غالباً من نفس القبيلة أو من نفس العائلة لكي يكون الخصم المعارض للوكيل المعزول. في أيام ازدهار الأمة الدرزية كان الحاكم والأمراء وكذلك الشيوخ يعيشون حياة مترفة. وكان زعماء العائلات المرموقة في لبنان يسكنون في قصور برجية تشبه الأبراج الموجودة عندنا على جانبي نهر الراين. وهي تكون مبنية عادة على قمم الجبال ويسكن



بجوارها بقية أفراد العائلة وأقرب الناس الموالين للزعيم. وكان كرم الضيافة كبيراً جداً. فعندما يذهب شيخ لزيارة أميره كان يجلب معه مئات الناس الذين يقضون أسابيع في ضيافة الأمير. وفي أثناء ذلك كان يجري تبادل للهدايا الثمينة بين المضيف والضيوف بما في ذلك الخيول وقطع السلاح. كان الصيد يشكل التسلية الرئيسية أثناء هذه الزيارات وكان يشارك في أعمال الخدمة عدد كبير من الناس.

كان القضاء الجزائي في يد الأمراء أو المشايخ، طالما كان هؤلاء يمارسون السلطة فعلياً. أما القضايا المدنية فكانت في أيدي قضاة مختصين.

كان أبناء العائلات الدرزية مصنفين في فئات طبقية مفصولة عن بعضها فصلاً صارماً بحيث إن صاحب أدنى مرتبة في الطبقة الأعلى يكون أعلى من صاحب أعلى مرتبة في الطبقة الأدنى. أما العائلات التي تعدّ في أعين الدروز، بسبب نسبها، الأقدم والأنبل فهي تنوخ وأرسلان وعلم الدين وهي عائلات تنحدر جميعها، كما ذكرنا أعلاه[1]، من نفس عائلة الأمراء الكبيرة القادمة من جنوب شبه الجزيرة العربية (أي من عرب الجنوب) ولم يبق منها حتى اليوم إلا فرع أرسلان. وتقف على نفس الدرجة في الاحترام والمعاملة عائلة معن العربية الشمالية. جميع

---

(1) انظر الصفحة 129 من كتاب من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج، الجزء الأول.



هذه العائلات، وكذلك عائلتا شهاب وأبي اللمع اللتان هاجرتا لاحقاً، تحمل لقب أمير[1]. وتأتي بعدهم مباشرة عائلة جنبلاط[2] التي حققت كثيراً من الثروة والنفوذ. وبعد ذلك يأتي آل عماد[3] وآل نكد[4] وآل تلحوق[5] وآل عبد الملك[6]، على سبيل المثال لا الحصر. ويستمر التمييز الطبقي الحاد حتى أدنى فئات الشعب ولم يزل حتى اليوم يعبر عن نفسه في أوساط عامة الشعب بأن العائلة ذات المرتبة الأولى في القرية هي العائلة التي استقرت فيها أول الأمر.

يتألف الزي الدرزي اليوم من قميص وسروال واسع (لباس) وفوق القميص تلبس عباية قصيرة بدون أكمام مخططة بالأسود والأبيض أو الأحمر، وفي كثير من الأحيان رداء طويل يشبه القميص (قمباز) ملون بألوان مختلفة. ويرتدي العقّال غالباً فوق هذه الملابس عباءة كبيرة سوداء اللون تغطي كامل الجسم. يتم

---

(1) في الأزمنة السابقة كان آل أرسلان لا يتزاوجون إلا مع آل تنوخ وآل علم الدين وآل معن. أما اليوم فلا يتزاوجون إلا مع آل شهاب المسلمين، إضافة إلى ذلك يتزوجون من نساء شركسيات. وقبل أن يصبح آل أبي اللمع مسيحيين كانت لهم مع هؤلاء أيضاً صلات قرابة.

(2) انظر كتاب من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج، ج1، ص172.

(3) انظر شدياق، نفس المصدر السابق، ص161.

(4) انظر شدياق، نفس المصدر السابق، ص144.

(5) انظر شدياق، نفس المصدر السابق، ص154.

(6) انظر شدياق، نفس المصدر السابق، ص159.



تصنيع العبايات من قبل الدروز أنفسهم. ويسمى حزام الوسط الذي يكون بصورة عامة من الصوف، وعند العقّال من الجلد، الزنّار. ويسمى الحذاء المنزلي «مداس». أما غطاء الرأس فيتألف من الطربوش والعمامة. وتكون العمامة دائماً بيضاء ويجري لفها بلفات منتظمة وخالية من التجاعيد، بينما يستعمل المسلمون قماشاً ملوناً أو منقّطاً يلف فوق الجبهة بشكل متصالب. يستعمل الرجال المسنون وأصحاب المراكز الموقرة قطع قماش طويلة وعريضة لكي يحصلوا على عمامة عالية وسميكة بشكل خاص. وفي حوران يلبس الدروز الشباب، الذين لم يصبحوا عقّالاً بعد، في كثير من الأحيان، بدل العمامة «العقال» الذي يستعمله عادة البدو والمصنوع من شعر الجمل، وهو يشبه الخيط الثخين، لتثبيت الكوفية. وفي الأوقات الأخيرة بدأ بعض الدروز المتنورين يلبسون الطربوش بدون عمامة، وكذلك الأزياء الأوروبية أو الإسطنبولية التي يلبسها الأفندية الأتراك.

يتألف لباس النساء من قميص وسروال ورداء أو عدة رداءات تشبه روب النوم وصدرية واسعة جداً غامقة اللون غالباً تكون بمثابة حامل للثديين. وفي كثير من الأحيان يبقى الثدي حراً خارج الصدرية. أما اللباس الخارجي فهو القمباز. وعند الخروج تغطي المرأة النصف السفلي من جسمها بقطعة قماش سوداء خاصة بالدروز تسمى «صايه» وتكون عند النساء الغنيات من الحرير



وتثبت من الأمام برباط من الفضة. وتضع المرأة على النصف العلوي من جسمها غطاء أبيض رقيقاً يشبه الشال يثبت على الرأس وتستعمله لتغطية وجهها، ما عدا إحدى العينين، عند اقتراب رجل غريب[1]. تحت الغطاء تلبس المرأة كغطاء للرأس قبعة من القماش أو الحرير أو المخمل مزينة بقطع فضية أو ذهبية مصفوفة بشكل منتظم. أما غطاء الرأس القديم «الطنطور» فقد بطل استعماله تماماً. وكان الطنطور يصنع من المعدن على شكل أسطواني أو أنبوبي مع صفيحة صغيرة على مقدمته يتدلى منها الغطاء. وتجدر الإشارة إلى أن النساء المسيحيات اللبنانيات والسوريات كن يلبسن أيضاً الطنطور.

يتألف تاريخ لبنان من سلسلة من الصراعات التي لا تتوقف، وقد شهد تاريخ الشعب الدرزي على الأخص كثيراً من الانشقاقات والانقسامات. ولعل هذا الأمر قد ساهم عما قريب، على الرغم من أن الدروز قد استولوا على الأرجح في القرن الحادي عشر على كامل المنطقة الغربية في لبنان، في انتقال الدور القيادي من أيدي العائلات الدرزية إلى أيدي عائلات إسلامية. ولكن الشيء الملفت للانتباه والمهم بالنسبة إلى المكانة

(1) يعتقد بأن هذا النوع من الحجاب قديم جداً في المناطق الإسلامية. في المغرب لم يزل مستعملاً حتى اليوم، ولكن يستعمل عادة بدلاً من الغطاء الرقيق قماش غير شفاف.



الاتنوغرافية (العرقية) للدروز هو أن أمراء لبنان الكبار كانوا حتى هذا القرن على الدوام من أصل عربي وكانت العائلات الدرزية المرموقة تتعامل معهم كأقرباء.

عندما ثبتت تعاليم الدروز أقدامها في لبنان كانت عائلات الشيوخ من عرب الجنوب هي السائدة هناك. وعندما أبيد، كما ذكرنا سابقاً، آل أرسلان في الحروب ضد الصليبيين حلت مكانهم عائلة تنوخ القريبة جداً منهم. وفي بداية القرن الثاني عشر جاء إلى لبنان آل معن، وهم من عرب الشمال، الذين ظلّوا ستة قرون تقريباً سادة المنطقة هناك. ويقال بأن جد العائلة كان ينتمي إلى بني ربيعة وكان رجلاً مشهوراً بشجاعته وحبه للمغامرة، اسمه أيوب، دفعته غيرة رفاقه منه إلى الهجرة إلى الجزيرة (شمال الرافدين). ومن هنا انتقل أحد أحفاده إلى منطقة حلب؛ وأصبح ابنه مؤسس الأسرة المعنية التي حصلت على اسمها منه. في عام 1117م، أي بعد مائة سنة من حصول التعاليم الدرزية على أول أتباعها في سورية، انتصر الفرنجة على الأمير معن في معركة الجبل الأسود[1]، وفي عام 1119م هاجر مع جميع قومه إلى الجهة الغربية من لبنان حيث استقر بموافقة حاكم دمشق طغتكين بن عبد الله، الذي طلب منه دعم الدروز الذين ناصروا قضية الإسلام ضد الصليبيين والمساعدة

(1) انظر تورنبرغ، ملاحظات حول المخطوطات المحفوظة في مكتبة جامعة لوند، 1851م، ص486.



على الدفاع عن الساحل ضد أي غزو صليبي. ولذلك سميت المنطقة التي استقر فيها «شوف»، أي انظر وراقب، وبالفعل فإن المرء يستطيع من المكان الذي أقام فيه مخيمه أول الأمر رؤية المنطقة بكاملها حتى البحر. استقبل آل تنوخ المعنيين بكل مودة واحترام وبنى المعنيون بمساعدتهم بالقرب من مخيمهم الأول مدينة بعقلين وتخلوا منذئذ عن العيش في الخيام. ويبدو أن المعنيين أصبحوا بفضل مهاراتهم الحربية قادة الدروز في المعارك ضد الصليبيين. وعندما انحلت الممالك المسيحية التي تشكلت في سورية وفلسطين واضطر الفرنجة إلى مغادرة البر السوري حصل المعنيون في لبنان على مكانة مرموقة، في بادئ الأمر إلى جانب التنوخيين الذين ارتبطوا معهم بعلاقات مصاهرة ولكن فيما بعد عرفوا كيف يبعدونهم عن مراكز القيادة شيئاً فشيئاً. وبعد ذلك سيطروا، عبر سلسلة من الحروب المتواصلة حتى نهاية القرن السابع عشر، ليس فقط على الدروز وإنما أيضاً على الموارنة والمتاولة في المناطق المجاورة لهم. ولكن ينبغي التأكيد بحزم على أن المعنيين، على الرغم من أنهم اعتمدوا بالدرجة الأولى على الدروز وأن الأوروبيين اعتبروهم دوماً من أمراء الدروز، ظلوا مسلمين[1]. إذ إن شدياق يضعهم صراحة في كتابه «أخبار

(1) القول الخاطئ بأن المعنيين دروزاً نجده أيضاً عند فوستنفلد، فخر الدين المعني أمير الدروز ومعاصروه، ص75 وما بعدها.



الأعيان في جبل لبنان» بين العائلات الإسلامية[1].

في نفس الوقت تقريباً مع ظهور المعنيين في تاريخ سورية برز آل شهاب، المسلمون أيضاً، والذين اتحدوا مع المعنيين بروابط القربى وبتقديم المساعدة لهم في عدد لا حصر له من المعارك وحلوا فيما بعد مكانهم في حكم لبنان[2].

يعيد آل شهاب نسبهم إلى خالد بن الوليد الذي جاء في القرن السابع، كما ذكرنا أعلاه، مع جماعته من الحيرة إلى دمشق. بعد الاستيلاء على دمشق عين أحد أقربائه، وهو الأمير الحارث، حاكماً على منطقة حوران لكي يمنع المسيحيين الذين هربوا إلى هناك من العودة إلى دمشق. وظل أحفاد الحارث، الذين اتخذوا من شهبا (فيليبوبوليس القديمة) مقراً لهم، حكاماً على حوران حتى عهد السلطان نور الدين. أدت الخلافات بين نور الدين في سورية وصلاح الدين في مصر إلى خروج آل شهاب بقيادة الأمير منقذ مع جميع رجالهم وأتباعهم، ما مجموعه نحو 15000 رجل، من حوران ليبحثوا عن مقر جديد لهم على سفوح جبل حرمون. في

---

(1) انظر شدياق، ص161 ـ 163 وص274. انظر أيضاً كتاب من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج، ج1، الفصل الأول، ص47، الملاحظة 1.

(2) بخصوص العرض التالي انظر، بالإضافة إلى كتاب شدياق المذكور، تقارير تورنبرغ، المجلة الجغرافية، الجزء الخامس، ص483 وما بعدها؛ ثم: فلايشر، عن أسرة الأمراء السورية بني شهاب، نفس المكان، ص46. ثم: بلاو، عن تاريخ سورية، نفس المجلة، الجزء الثامن، ص475.



جسر اليعقوبي اصطدموا مع الفرنجة بقيادة القائد العسكري قنطورة (الكونت دوريا)[1]. بعد معركة دامت عدة أيام انهزم قنطورة ولجأ إلى قلعة حاصبيا التي سلمها أيضاً للمنقذ بعد أن دافع عنها دفاع الأبطال (1172م). ومنذئذ أصبحت حاصبيا والمنطقة المحيطة بها مقر إقامة الشهابيين. وعندما سمع الأمير يونس، الذي خلف أباه الأمير معن المتوفى عام 1149م، بانتصارات الأمير منقذ توجه إليه ليقدم له التهاني. وبعد وقت قصير (1173م) حدث عرس مزدوج[2] بين العائلتين تمَّ تزيينه تقليدياً بطريقة شاعرية إذ أعطى يونس ابنته طيّبة لابن المنقذ شهاب، محمد، وفي الوقت نفسه تزوجت بنت المنقذ سعدة من يوسف، ابن يونس وخليفته فيما بعد. وبعد ذلك ظلت الإمارة في عائلة معن تنتقل بالوراثة من الأب إلى الابن، وكان الأمراء حسب التسلسل التالي: سيف الدين، عبد الله، علي (متزوج من ابنة عامر شهاب، حفيد منقذ شهاب)[3]،

---

(1) انظر شدياق، نفس المرجع السابق، ص45؛ تشرتشل، جبل لبنان، إقامة عشر سنوات من 1842م حتى 1852م، لندن 1853م، الجزء الأول، ص142 يسميه: الكونت أورا.

(2) حسب تورنبرغ ارتبط آل معن بعلاقة قربى مع آل شهاب في عام 558هـ (1162/ 1163م)، ولكن يبدو أنه قدّم تاريخ العرس المزدوج.

(3) في عهد علي وقع الزحف المغولي على سورية. وأن يكون للمعنيين آنذاك قوة منيعة فهذا ما تثبته حقيقة لجوء آل شهاب إليهم وإيجاد الحماية عندهم بعدما تعرضوا للتهديد المغولي عند وادي التيم.



بشير محمد[1]، سعد الدين، عثمان (المتزوج من ابنة أبي بكر شهاب)، أحمد، ملحم. كان لملحم ولدان[2]: يوسف وعثمان[3]، وابن عثمان كان فخر الدين الأول.

عندما كان فخر الدين أميراً على لبنان بدأ الأتراك تحت قيادة سليم الأول باحتلال سورية. على الفور انتقل فخر الدين مع أمراء الدروز الآخرين، وخاصة جمال الدين أرسلان وزعيم عائلة علم الدين آنذاك، إلى السلطان العثماني (1516م) وقدموا له خدمات جليلة. وكما يبدو استغل فخر الدين تغير الحكم لكي يوسع نطاق حكمه إلى خارج حدود لبنان. «في عهده انطفأ بريق عائلة تنوخ وسطع بدلاً منه نجم آل معن»[4]. وما لبث بعد وقت قصير أن شعر أنه صار قوياً جداً إلى درجة القدرة على رفض دفع الضرائب والأتاوات لحاكم دمشق التركي. لكنه اضطر فيما بعد إلى تقديم

---

(1) يختلف التسلسل قليلاً عند فوستنفلد، نفس المصدر السابق، ص77.

(2) حسب تورنبرغ، نفس المرجع السابق، ص496، جاء بعد ملحم ابنه يونس الذي يذكره أيضاً شدياق، نفس المرجع السابق، ص163 ولكن دون أن يحدد صلة القربى.

(3) عثمان هو أول المعنيين الذي نعرف أنه قد دفن (1507م) في صيدا (شدياق، نفس المرجع السابق، ص163). ومنذ ذلك الحين يبدو أن صيدا أصبحت المكان الذي دفن فيه غالبية المعنيين.

(4) بلاو، نفس المرجع السابق، ص480، يذكر أن التنوخي سعد الدين كان خال فخر الدين الكبير ومربيه. انظر بلاو، نفس المصدر السابق، ص481.



عصا الطاعة. وعندما قبل دعوة من حاكم دمشق قتل هناك أثناء الزيارة (1544م). لم يغفر ابنه قرقماز (يسمى عادة بالتركية: معن أوغلو أي ابن معن) للأتراك قتل أبيه غدراً وإن كان قد عرف كيف يتعامل مع الحكومة بنوع من المجاملة والحذر. لكنه هو أيضاً مات ميتة غير طبيعية (1584م). في عهده وعهد خليفته فخر الدين الثاني الكبير بلغ المعنيون أعلى مكانة لهم رغم الدسائس المتواصلة من أمراء لبنان والمناطق المجاورة. بسبب انشغال الأتراك في أماكن أخرى استطاع الرجلان أحياناً مدّ سلطتهما من حلب حتى سانت جان داكري، لا بل وسيطرا على المناطق القريبة من دمشق. وتنسب قلعة تدمر حسب رواية محلية إلى معن أوغلو ويقوم بترميمها في الوقت الحاضر أمراء لبنان[1]. آثر فخر الدين التجار الأوروبيين والمبشرين المسيحيين في الساحل السوري. وبنى في المرافئ الرئيسية اللاذقية وطرابلس وبيروت وصيدا وعكا القلاع وأيضاً القصور والمنتزهات[2]. وكان يحب الإقامة في بيروت، وفي وقت لاحق في صيدا وعكا، وفعل الكثير من أجل تطوير غرب سورية[3]. ويبدو أن فخر الدين كانت لديه خطط بعيدة

---

(1) انظر الفصل الثامن، ص325 من كتاب من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج، الجزء الأول.

(2) انظر موندريل، رحلة من حلب إلى القدس.. في عام 1697م، ص65 وما بعدها. ريتّر، نفس المرجع السابق، الجزء 17 ـ 1، ص446 وأماكن أخرى متفرقة.

(3) ينسب إليه بناء الجسر على نهر الكلب وغرس غابات الصنوبر قرب بيروت. انظر موندريل، نفس المرجع، ص60.



المدى وكان يفكر بإعادة الفرنجة إلى الأراضي المقدسة[1] لكي يمد سلطته بمساعدتهم نحو الشمال ولربما حتى القسطنطينية. لكن الحكومة التركية تدخلت أخيراً بكل قوة ضده. استغلت بطريقة لبقة خصوم فخر الدين، ومن بينهم عائلة أمراء ابن سيفا التي استقلت في طرابلس وآل حرفوش أمراء المتاولة في بعلبك وغيرهم[2]، لتحقيق أغراضها. في ذلك الوقت يبدو أن التناقض القديم بين القيسي واليمني، أي بين عرب الشمال وعرب الجنوب، القائم في جميع أرجاء العالم العربي منذ أيام النبي محمد والذي تسبب بحدوث نزاعات دامية ليس فقط في الجزيرة العربية وبلاد الرافدين بل وأيضاً في بلدان إسلامية نائية كإسبانيا مثلاً، قد انتعش في لبنان لأول مرة من جديد وسبّب للمعنيين، الذين هم كما نعلم من عرب الشمال، مصاعب حقيقية. وحتى قسم من آل شهاب وقف ضد فخر الدين بينما وقف أعضاء آخرون من هذه الأسرة إلى جانب المعنيين، محافظين على ولائهم التقليدي لهم، وكوفئوا على ذلك[3]. في عام 1614م بدأ باشا دمشق حرباً حقيقية ضد فخر الدين الذي اضطر إلى التراجع شيئاً فشيئاً باتجاه الساحل وأخيراً لم يبق أمامه أي سبيل سوى مغادرة سورية واللجوء، بناء على اتفاقيات سابقة مع أسرة

---

(1) انظر روجيه، الأراضي المقدسة. . . .، ص346.

(2) انظر فوستنفلد، نفس المرجع السابق، ص104 وما بعدها.

(3) انظر بلاو، نفس المرجع السابق، ص486.



ميديتشي، حكام فلورنسا[1]، إلى بلاط الدوق فرديناند الأول دوق التوسكانا. بقي أكثر من خمسة أعوام في إيطاليا[2] ولفت لأول مرة انتباه أوروبا إلى وجود الدروز. وقام آنذاك بنشر الحكاية المختلقة بأن أصل الدروز يعود إلى صليبي مسيحي هو البارون دي درو[3]. وأعاد هو نفسه نسبه إلى غوتفريد فون بوييّون. ولكن عندما خاب أمله في الحصول على سفن وقوات لمحاربة الأتراك عاد إلى لبنان. في عام 1619م نزل في صيدا وتولى على الفور زمام الحكم الذي كان خلال فترة غيابه في يد أخيه يونس وابنه علي[4]. وبعد وقت قصير اندلعت الاضطرابات من جديد. فانتصر فخر الدين على خصومه في لبنان وفي غرب سورية وسعى مرة أخرى إلى مد سلطته إلى شرق سورية. وفي عام 1633م أرسل الباب العالي أخيراً كوچك أحمد باشا على رأس جيش قوامه 50,000 رجل لمحاربة فخر الدين، وقتل في المعارك التي دارت بين الطرفين كل من أخيه يونس وابنه علي. أما فخر الدين فقد انسحب إلى منطقة الشوف الجبلية الوعرة ثم لجأ بعد حصار طويل إلى مغارة حيث ألقي القبض عليه. ثم نقل مع أبنائه إلى القسطنطينية (1633م).

---

(1) انظر ماريتي، نفس المرجع السابق، ص95 وما بعدها.

(2) في هذه الأثناء يبدو أن فخر الدين قد جاء إلى سورية مرة واحدة ولفترة قصيرة.

(3) انظر كتاب من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج، ج1، ص152، الملاحظة 3.

(4) كان علي هذا قد تزوج عام 1618م من إحدى بنات علي شهاب.



حل محله أميراً على لبنان الأمير علي علم الدين اليمني، أي من عرب الجنوب[1]. ولكن بعد عامين جمع ملحم بن يونس، أي ابن أخ فخر الدين، القيسيين حوله وطرد علم الدين. وعلى إثر ذلك صدر حكم بالإعدام على جميع آل معن وهو أمر تمَّ تنفيذه فعلاً بحق فخر الدين واثنين من أبنائه في القسطنطينية (1635م). فقط حسين، أحد أبناء فخر الدين، الذي كان قد وقع في يد الأتراك قبل أخذ أبيه أسيراً، نجا من الموت وتبوأ في وقت لاحق مكانة رفيعة في القسطنطينية لكنه لم يعد أبداً إلى سورية. إلا أن ملحم كان قادراً على المحافظة على حكمه في لبنان وفي أجزاء من الساحل السوري ولكن ليس في الاتساع الذي كان في عهد عمه فخر الدين. توفي عام 1658م ودفن في صيدا[2]. خلّف ملحم وراءه ابنين: قرقماز وأحمد اللذين توليا الحكم في بادئ الأمر معاً[3]. في هذا الوقت تمَّ رفع صيدا إلى مرتبة الباشوية وأرسلت قوات تركية إلى هناك لمحاربة الأخوين المتمردين حيث قتل قرقماز في المعارك التي دارت بين الطرفين (1662م)، أما أخوه

---

(1) شدياق، نفس المرجع السابق، ص144، يذكر في حديثه عن نسب آل «تنوخ من اليمن» أن هذا الأمير علي علم الدين قد قتل في قصر عبيه آخر الأمراء التنوخيين الحقيقيين.

(2) انظر ماريتي، نفس المرجع السابق، ص303.

(3) هناك وصف معبر لطريقة الحياة المستهترة التي كان يتبعها الأميران؛ انظر آرفيو، أخبار غريبة، الترجمة الألمانية، الجزء الأول، كوبنهاغن ولايبزيغ 1753م، ص355 وما بعدها.



فقد نجا من الموت رغم إصابته بجروح بليغة وظلت السلطة في يده حتى وفاته في عام 1697م.

كان أحمد آخر حاكم من آل معن، إذ إن ابنه الوحيد ملحم كان قد توفي في عام 1679م. وبما أنه كان مدركاً لانطفاء أسرته من بعده فقد استغل بطريقة ذكية الانقسام بين القيسيين واليمنيين لتأمين السيطرة من بعده في لبنان لآل شهاب الذين كانوا مرتبطين مع عائلته بعلاقات مصاهرة كثيرة منذ مئات السنين. تحت حجة تجنيب الشعب الدرزي حروباً بين الأخوة جمع أحمد حوله جميع العائلات النافذة ونجح في جعلها تنتخب الأمير الشاب حيدر شهاب، الذي هو حفيده لابنته (ابن صهره زوج ابنته موسى شهاب) حاكماً على لبنان. بعد وفاة أحمد معن تولى الحكم في بادئ الأمر بشير شهاب بدلاً من حيدر شهاب الذي كان لم يزل قاصراً[1]. واعتباراً من الآن انتقل آل شهاب من حاصبيا إلى دير القمر التي كانت قد أصبحت في أيام فخر الدين مقراً لحكومة الشوف، المنطقة الأصلية لآل معن، بدلاً من بعقلين. في عام

---

(1) موسى شهاب كان حفيد قاسم شهاب الذي كان بدوره ابن علي شهاب الذي كان علي بن فخر الدين متزوجاً من ابنته. وكان لأخ علي شهاب، أحمد شهاب، ابن اسمه حسين الذي كان ابنه بشير شهاب الشهابي الأول الذي حكم لبنان فعلاً. أما بلاو، نفس المرجع السابق، ص492، فيقول إن الأمراء انتخبوا بعد وفاة أحمد معن ابن أخته الأمير بشير شهاب حاكماً على لبنان. وأما خليفته حيدر شهاب فيعتبره هذا المصدر ابن عمه.



1708م توفي بشير شهاب في عكا مسموماً، ويقال بأن حيدر شهاب أو أصدقاؤه هم الذين وضعوا له السم. بعد ذلك تولى حيدر شهاب بنفسه زمام الحكم. في هذه الأثناء كان اليمنيون قد رفعوا رأسهم مرة أخرى[1]. وانحاز إلى صفهم باشا صيدا لا بل إنه سمح لليمني محمود أبو هرموش باستعمال لقب باشا لبنان. ضمن هذه الظروف اضطر حيدر شهاب إلى الهرب فترة من الزمن وتعرض القيسيون لكثير من الضغوط. لكن حيدر نجح أخيراً في تجميع أنصاره. فهجم عليه أبو هرموش أملاً في تلقي الدعم من باشا صيدا وباشا دمشق، ولكن قبل وصول القوات التركية لمساندته وقعت المعركة قرب عين داره (عام 1711م)[2] وأسفرت

(1) أما ماريتي، نفس المرجع السابق، ص307 وما يليها فيرسم نسب المعني الأخير وتسلسل الأمراء الكبار بعد وفاة ملحم الأول بشكل مختلف بعض الشيء عن بقية المراجع. حسب رأيه كان قرقماز وأحمد ابني علي بن فخر الدين المقتول في عام 1633م (أو في عام 1635م حسب ماريتي). بعد قرقماز جاء، «دون أن يستطيع المرء ذكر السبب»، الأمير فارس شهاب. ثم خلفه في بادئ الأمر يونس شهاب وبعد ذلك تولى أحمد معن الحكم. كان أحمد حسب هذا المصدر، متزوجاً من ابنة يونس شهاب، وبعد موته في عام 1695م أصبح صهره منصور حاكم لبنان. وحسب ماريتي فإن الذي توفي عام 1708م بالسم في عكا هو بشير منوقلي بن أحمد وابنة يونس. وقام ابنه خلافاً لكل تقاليد الأسرة بالوقوف إلى جانب اليمنيين ثم قتل في العشرينات (1723م).

(2) انظر شدياق، نفس المرجع السابق، ص364.



عن إصابته بهزيمة نكراء. على إثر ذلك أبيدت عائلة علم الدين بكاملها وقطع لسان هرموش وأصابع قدميه لكنه أبقي على قيد الحياة احتراماً للقب الباشوية الذي يحمله. في ذلك الوقت هاجر جزء كبير من اليمنيين إلى حوران[1] ومن بينهم عائلة حمدان التي أصبحت زعيمة دروز حوران وظلت تقيم في السويداء حتى انقراضها قبل 30 عاماً تقريباً.

بسبب معركة عين داره قويت جداً سمعة ومكانة حيدر شهاب واستغل هو مركزه القوي الذي أصبح بلا منازع تقريباً لإضعاف اليمنيين، وبالتحديد آل أرسلان، وإثراء نفسه والعائلات المتصادقة معه على حسابهم. فقد انتزع من آل أرسلان شمال «الغرب» والجرد وأعطاهما لآل تلحوق وآل عبد الملك[2] الذين كانوا قد أثبتوا كفاءة عالية في معركة عين داره. وحصل آل أبي اللمع، الذين تميزوا بشجاعة عالية أيضاً، على حق حمل لقب أمير واتخذ حيدر شهاب نفسه فتاة من أبي اللمع زوجة له.

بعد معركة عين داره فقد التناقض بين القيسيين واليمنيين أهميته لأن العناصر اليمنية التي بقيت في لبنان أضعفت إلى أبعد

---

(1) انظر كتاب من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج، ج1، الفصل الثالث، ص117، ثم ص189.

(2) ومما أزعج آل أرسلان أشد الإزعاج أن آل تلحوق وآل عبد الملك كانوا يعملون في خدمتهم.



الحدود[1]. ومنذ ذلك الحين نشأ انشقاق جديد بين عائلات لبنان: ظهر حزب الجنبلاطيين واليزبكيين (أو اليزبكجي). تجمع خصوم الشهابيين الحاكمين، وعلى رأسهم العائلات اليمنية، حول عائلة جنبلاط التي كانت قد أصبحت بعد الشهابيين أقوى عائلة في لبنان. الجنبلاطيون هم من ناحية المنشأ أكراد (أو أتراك؟). في بداية القرن السابع عشر نجدهم كأمراء محليين مستقلين في بلدة كلّز (كليز) قرب حلب حيث لم يزل بعض أفراد العائلة حتى اليوم يعتنقون الإسلام. لا بل إنهم كانوا قد تولوا الحكم في حلب فترة من الزمن. في وقت لاحق اختلفوا مع باشا حلب وكان هذا السبب في جعلهم يتركون كلّز ويهاجرون إلى جنوب سورية حيث لعبوا دوراً مهماً في الاضطرابات الحربية التي حدثت في ذلك الوقت. وفي عام 1630م لبوا دعوة من فخر الدين للاستقرار في لبنان. وكان لآل جنبلاط علاقات صداقة سابقة مع آل معن، ولا شك في أن فخر الدين الذي كان آنذاك يتعرض لضغط شديد من خصومه أراد من وراء دعوته لآل جنبلاط الحصول على حليف قوي وموثوق في بلده ذاتها. وهكذا جاء الشيخ جنبلاط[2] مع

---

(1) في عام 1767م تنازل إسماعيل أرسلان، الذي تخاصم مع عائلته، عن جزء كبير من ثروته لزوجته الشهابية. فاستغل ملحم شهاب الذي كان حاكماً آنذاك هذا الوضع ليضع يده على الجزء الأكبر من الأملاك المتبقية لآل أرسلان.

(2) شدياق استعمل أيضاً الصيغة «جان بولاد» (نفس المرجع السابق، ص129).



ولديه سعيد ورباح إلى غرب لبنان واستقر في الشوف غير بعيد عن دير القمر. وأصبح فيما بعد مستشاراً لفخر الدين الذي كلفه عام 1631م بقيادة حملة عسكرية.

بعد وفاة جنبلاط الأب (1640م) صار ابنه رباح شيخاً في الشوف. وكان لرباح ثلاثة أبناء: علي وفارس وشرف الدين. علي جنبلاط تزوج ابنة قبلان القاضي التنوخي، أي اليمني[1]، وهو رجل ثري جداً وله نفوذ كبير بسبب مركزه كقاضٍ أعلى وزعيم روحي. وعندما توفي قبلان في عام 1712م ترك نصف ثروته لزوج ابنته علي والنصف الآخر للأمير حيدر شهاب الحاكم. لكن الدروز لم يكونوا يريدون انتقال الأملاك إلى أيدي الشهابيين المسلمين، فاشتروا هذه الأملاك بمبلغ هائل بمقاييس ذلك الزمان قدره 25000 قرش وأعطوها لعلي جنبلاط الذي كانوا قد تعوّدوا على اعتباره واحداً منهم. ويبدو أن النفوذ الديني لقبلان القاضي جعل الدروز يعتقدون أن عائلة جنبلاط هي، بسبب قربها من القاضي، عائلة درزية حكماً وأن قبول أفرادها كأخوة كان أمراً طبيعياً تماماً. نتيجة لهذه الملكية الجديدة ازدادت ثروة آل جنبلاط بشكل هائل. في هذا الوقت انتقل علي إلى بزران وبنى هناك قصر المختارة الذي لم يزل حتى اليوم مقر إقامة عائلة جنبلاط[2]. وبناء

(1) هذا هو تفسير آخر لانضمام اليمنيين إلى الجنبلاطيين.
(2) انظر من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج، ج1، الفصل الأول، ص46.



على اقتراح العائلات البارزة في الشوف عيّن حيدر شهاب علي جنبلاط محافظاً لهذه المنطقة.

يبدو أن تنامي نفوذ الجنبلاطيين دفع الشهابيين إلى دعم تشكل حزب مضاد. إلى جانب عائلة أبي اللمع كان آل تلحوق وآل عبد الملك، الذين يعود الفضل في تحسن وضعهم المادي إلى الأمير حيدر شهاب، من أوفى أتباع الأسرة الحاكمة. هذه العائلات اتحدت مع عائلة عبد السلام اليزبكي الغنية والقوية وشكلت معاً مجموعة واحدة أطلق عليها اسم يزبكي[1]. وهكذا انقسمت العائلات الدرزية إلى حزبين ملأت خصومتهما والعداوات بينهما العقود التالية وانجرف إليها في كثير من الأحيان الموارنة والمتاولة أيضاً.

في هذه الأثناء كان حيدر شهاب قد خلفه في عام 1729م ابنه ملحم الثاني الذي اهتم بشكل خاص بإخضاع المتاولة الذين طردهم من شمال لبنان وأجبرهم على الاستيطان عند جبل عامل

---

(1) انظر نيبور، نفس المرجع السابق، الجزء الثاني، ص365، الملاحظة 6 («بيت شويفات» المذكورون هناك بانتمائهم إلى الحزب المضاد هم بيت أرسلان). ثم ص367 حيث يذكر نيبور أن مقر إقامة عبد السلام هو مدينة الباروك في العرقوب، ويصف الشيخ نفسه بأنه «رئيس الحزب الذي يدعم حالياً الأمير الحاكم». إلا أن مصدر معلوماتي الذي كان نشوء هذه التسمية الحزبية غير معروف بالنسبة له، يرى أنه، من أجل تجنب العداوات لم يذكر اسم العائلات المشاركة وإنما اسماً ما لا على التعيين.



قرب صيدا وصور. أما أملاكهم فقد أعطاها لعائلات مارونية للاستثمار الاقطاعي. في عام 1756م اعتزل ملحم وبدلاً من أن يحل محله ابنه يوسف، الذي كان لم يزل قاصراً، تولى الحكم أخواه أحمد ومنصور. وعلى الفور نشبت خلافات بينهما فاعتمد أحمد على اليزبكيين واعتمد منصور على الجنبلاطيين. لكن الجنبلاطيين كانت لهم اليد العليا واضطر أحمد إلى الهرب. إلا أن منصور المنتصر عامل اليزبكيين بمنتهى القسوة والظلم فلجأوا إلى يوسف بن ملحم الثاني ودعوا إلى حقه في الحكم[1].

بينما كان الصراع بين منصور ويوسف مستمراً أرسل علي بك، أحد بكوات المماليك في مصر الذين استولوا في نهاية القرن الماضي على السلطة في كامل بلاد النيل، جيشاً إلى سورية. وكان علي بك قد تفاهم مع ضاهر العمر سيد عكا لكن المصريين اضطروا إلى الانسحاب دون أداء مهمتهم على الرغم من أن منصور وقف إلى جانبهم. وبعد وقت قصير نشبت معركة بين يوسف، الذي أرسل باشا دمشق قوات لمساندته، والمتاولة الذين تحالفوا مع ضاهر العمر. مُني يوسف والأتراك بهزيمة نكراء، وفي الوقت نفسه ظهر أمام بيروت، بناء على طلب ضاهر وعلي بك، أسطول روسي قام بقصف المدينة. فأرسل باشا

(1) انظر بلاو، نفس المرجع السابق، ص497؛ ماريتي، نفس المرجع السابق، ص314 وما بعدها.



دمشق أحمد الجزار[1] إلى بيروت. سيطر الجزار على المدينة لكنه لم يسلمها للأمير يوسف بل أعلن تابعيتها للأتراك. نتيجة لذلك تحالف يوسف مع ضاهر العمر الذي استدعى الأسطول الروسي مرة أخرى، فقام الأسطول بمحاصرة بيروت شهراً كاملاً. اضطر الجزار إلى التراجع لكنه تمكن فيما بعد، بعد مقتل ضاهر العمر على يد جماعته أنفسهم، من احتلال عكا وصفد وأصبح والياً على عكا. استغل سلطته لابتزاز مبلغ كبير من الأمير يوسف ولجعله لعبة لأهوائه وتعسفه. كان يوسف يسلم الحكم بين حين وآخر لابن أخيه بشير شهاب، وعندما أرسله في مهمة دبلوماسية إلى الجزار استغل بشير هذه الفرصة لكي يحصل من الباشا على أمر بتعيينه حاكم لبنان. وكان ابن الأخ نفسه قد تنبأ لعمه بالتحول الذي حدث حيث قال: «الآن أنا ابنك وأخشى أن أعود من مهمتي ابناً للجزار». عندئذ هرب يوسف خوفاً من بشير وذهب إلى عكا أملاً في أن يعيد له الباشا حقوقه لكن أمله خاب. وعندما عجز عن إشباع الجشع المادي للباشا، الذي كان يوزع تأييده على العم وابن الأخ حسب قدرة كل منهما على الدفع، قُتل في عكا.

---

(1) كان أحمد الجزار مملوكاً بوسنياً لعلي بك الذي كان يتولى في مصر مهمة قاضي تنفيذ أحكام الإعدام (ولهذا لقب بالجزار)؛ انظر لوكروي، أحمد الجزار، باريس 1888م، ص13، 15، 27.



قاد الأمير بشير شهاب الحكم في لبنان 54 عاماً ولكن مع العديد من التقطعات. وقام، من أجل المحافظة على مركزه في السلطة، بخيانة بلده أكثر من مرة وبإذلال الدروز بطريقة مهينة معتمداً دوماً على الموارنة. وكان التقرب من الموارنة، الذين يشكلون ثاني أكبر قوة بعد الدروز في لبنان، قد بدأ منذ أيام ملحم شهاب[1]. وفي عام 1756م كان الأميران الشهابيان علي وقاسم قد اعتنقا المسيحية[2]، وليس مستبعداً أن يكون الأمير بشير ـ ابن قاسم المذكور ـ قد اعتنق المسيحية أيضاً[3] وإن كان ظل نحو الخارج متمسكاً ظاهرياً بعقيدته الإسلامية[4]. وعلى أي حال فقد

---

(1) ولذلك قام علي جنبلاط بدعم الملكيين (الكاثوليك الشرقيين) ضد الموارنة. ويعود الفضل في حصول الملكيين على دير المخلّص إلى جنبلاط.

(2) انظر بلاو، نفس المصدر السابق، ص496.

(3) انظر ريتر، نفس المصدر السابق، الجزء الثاني عشر، ص693؛ روبنسون، رحلة في فلسطين وسورية، باريس 1838م، الجزء الثاني، ص427. كما أن أبي اللمع اعتنقوا المسيحية لكي يستطيعوا البقاء في الحكم في قضاء المتن ذي الغالبية المسيحية. بعد صدور قرار «التنظيم العضوي» تعين أن يكون القائمقام أيضاً في هذا القضاء مسيحياً، ولم يزل أبو اللمع يتولون هذا المنصب حتى اليوم. من بين الشهابيين الذين اعتنقوا المسيحية عاد البعض في وقت لاحق إلى الإسلام، لأسباب سياسية ومالية.

(4) ما زال الناس حتى اليوم يتحدثون عن وجود ممر تحت الأرض في قصر بيت الدين كان يؤدي من الحمام إلى الكنيسة المارونية الموجودة خارج حديقة القصر. كان الناس في لبنان يقولون في منتصف هذا القرن إن=



ظل في الصراعات الداخلية الكثيرة، التي هزت لبنان في فترة حكمه، يعتمد بشكل ممتاز على الموارنة. وكان بشير رجلاً ظالماً لا يتورع عن استعمال العنف ضاعف ثروته عن طريق الاستيلاء على أراضي الغير، ليس فقط أراضي خصومه بل وأراضي أقربائه أيضاً. إضافة إلى ذلك احتكر مواد استهلاكية مختلفة كالحرير والصابون وغيرهما. ويقال بأنه لم ينظر أبداً إلى امرأة غريبة ولم يضحك أبداً ولم يتلفظ أبداً بكلمة نابئة أو شتيمة، لكنه أمر مراراً وتكراراً بقتل كثير من الناس وتعريضهم لأبشع أنواع التعذيب.

عندما أصبح بشير، بعد اغتيال يوسف، حاكماً معترفاً به في لبنان رأى أنه من الأنسب أن يقيم علاقة جيدة مع الشيخ بشير جنبلاط الذي أصبح بعد إخضاع اليزبكيين أقوى رجل في لبنان وقائد الدروز اللبنانيين. لكن الجزار، الذي لم تكن له بأي حال مصلحة في قيام علاقات منظمة في لبنان، رأى نفسه مضطراً إلى محاربة البشيرين. وعندما جاء الأمير بشير إلى عكا لكي يتسلم قلادة الحكم رافقه الشيخ بشير جنبلاط فاعتقل الاثنان في وقت

= الأمير بشير ولد مسيحياً وعاش مسلماً وتوفي درزياً. (انظر جيرار نرفال، مجلة العالمين، الجزء 18، باريس 1847م، ص639). وهناك قصة طريفة معبرة تقول إن مارونياً ومسلماً ودرزياً اختلفوا حول عقيدة الأمير بشير فقرروا سؤال الأمير نفسه. فما كان منه إلا أن أمر بمعاقبتهم «بالفلقة» (الجلد على أسفل القدمين) بسبب فضولهم الزائد؛ انظر راي، رحلة في سورية، باريس 1862م، ص73 وما بعدها.



واحد وألقيا في السجن عشرين شهراً[1]. لكن الشهابي عرف وهو في السجن كيف يستغل جشع الجزار ويجعله يعيده إلى منصبه. وبعد ذلك تمكن بشير وصديقه جنبلاط من التغلب على ابن عم يوسف شهاب، الذي كان في هذه الأثناء قد تولى بالقوة دور الأمير الأكبر، وقتله خنقاً. والآن حكم بشير في لبنان عشرة أعوام تقريباً دون خصم يستحق الذكر. في هذه الفترة جاءت حملة نابليون إلى مصر وسورية. لم يتخذ بشير قراراً بالوقوف مع نابليون أو ضده بل انتظر سير الأحداث، وعندما فشل نابليون في حصار سانت جان داكر (1801م) التي دافع عنها الجزار دفاع الأبطال ضد الفرنسيين، تبين أن قراره كان صائباً[2].

إلا أن ما كان أخطر من جميع الصعوبات السابقة على حكم بشير ذلك التمرد الذي حدث في بداية القرن الجديد بقيادة ابني سلفه يوسف. اضطر بشير للهرب إلى حوران، وعندما تمكن من العودة بمساعدة الجزار تعين عليه تقاسم الحكم في لبنان مع أبناء عمه. ومن الطبيعي أن الدسائس والصراعات ظلت مستمرة في ظل هذا الحل. إلا أن الظروف لم تكن في صالح بشير، ولذلك فضل أخيراً السفر إلى مصر عن طريق قبرص وآسيا الصغرى ومالطا

---

(1) انظر بريبه، سورية تحت حكم محمد علي حتى عام 1840م، باريس 1842م، ص330.

(2) عرف نابليون كيف يقدر ذكاء الشهابي وكرمّه بإهدائه بندقية مزينة بالذهب تعبيراً عن الصداقة.



(1805م). هناك عقد مع محمد علي، المؤسس الكبير للسلالة الحاكمة حالياً في مصر، معاهدة صداقة ظل الاثنان وفيين لها حتى نهاية حياتهما السياسية الأمر الذي يثير الاستغراب. كان هذا التحالف مبنياً على المصالح المشتركة. ويبدو أن بشير شجع محمد علي آنذاك على خططه البعيدة المدى ووقف إلى جانبه عند تنفيذها. أما ما كان يأمله مقابل ذلك، وما حصل عليه فعلاً، فهو أن يتمكن عن طريق محمد علي من تعزيز سلطته في سورية. في بادئ الأمر أعيد بفضل تدخل محمد علي إلى مركزه السابق.

وما أن عاد بشير إلى لبنان حتى بدأ حملة انتقام من خصومه. ألقي القبض على ابني يوسف وقلعت عيونهما بقضيب حديدي متوهج واقتلع لساناهما بالكماشة. كما قتل العديد من الشخصيات المتنفذة من أنصار الأميرين الشابين وصودرت جميع أملاكهم (1807م). وبعد وقت قصير توفي أخو بشير، الذي كان قد لعب دوراً أساسياً في قمع التمرد الأخير، بطريقة غامضة. وبذلك لم يبق للأمير أي منافس على مركز الحاكم.

في هذه الأثناء كان الجزار أيضاً قد غاب عن مسرح الأحداث. ونظراً لميل بشير إلى الدسائس والمناورات فقد حاول التدخل في النزاعات القائمة بين باشا عكا الشاب عبد الله وباشا دمشق. فصدر فرمان (أمر) من السلطان العثماني حكم بموجبه على عبد الله بالموت وعزل بشير من منصبه. وبينما كان الجيش



التركي يحاصر عبد الله في سان جان داكر هرب بشير للمرة الثانية إلى مصر. ومرة أخرى تمكن محمد علي من استصدار أمر من السلطان بالعفو عن بشير وعبد الله باشا، ومرة أخرى عاد بشير شهاب سيداً إلى لبنان (1823م). وكان قبل سفره قد سلم الحكم لأخيه عباس الذي كان يبدو بسبب قدراته العقلية الضعيفة الضمانة لأن يستقيل في اللحظة المناسبة دون أي معارضة. غير أن الشيخ بشير جنبلاط استغل ضعف عباس ليستولي هو نفسه على السلطة. وفي الحرب التي دارت بعد ذلك بين الأمير والشيخ وقف أخوة بشير شهاب الثلاثة إلى جانب جنبلاط. إلا أن الأمير بشير انتصر بفضل المساعدة التي تلقاها من عبد الله باشا. فقام بخنق الشيخ بشير جنبلاط وبإلقاء جثته للكلاب[1]. أما أخوة بشير فقد لقوا نفس المصير الذي كان قد لقيه ابنا عمه: فقد قلعت عيونهم وقُصّت ألسنتهم.

في بداية الثلاثينات بدأ تنفيذ خطط محمد علي الجريئة. وكان قد نشب نزاع حاد بينه وبين عبد الله باشا. وعندما احتل إبراهيم، ابن محمد علي وقائد حملته العسكرية، قلعة عكا التي كانت حتئذ تعتبر منيعة عن الاحتلال، أعلن بشير وقوفه إلى جانب المنتصر (1832م). خلال وقت قصير استولى إبراهيم على سورية بكاملها واستقر المصريون في البلد حيث قضوا على نظام الباشاوات

(1) انظر بريبه، نفس المرجع السابق، ص336.



والأمراء القديم وحصل بشير شهاب على مناطق واسعة خارج لبنان وعلى جزء من الساحل السوري حيث كان يحكم بصورة شبه مستقلة. وكانت قوة شخصيته وميله للعنف، مرتبطاً بما أظهره سابقاً من ظلم وبطش، قد جعلت الدروز والموارنة يهابونه بمزيج من النفور والاحترام. مستنداً إلى ثقته بدعم المصريين له استغل بشير سلطته إلى أبعد الحدود لكي يبتز من اللبنانيين مبالغ لا حدود لها.

في قصر بيت الدين الذي بناه قرب دير القمر مباشرة كان بشير يعيش حياة فخمة مرفهة. كان الصيد بواسطة الصقور من هواياته المحببة وكانت سمعة رحلات صيده وما يرافقها من احتفالات قد وصلت إلى أوروبا. لكن بشيراً كان زوجاً نموذجياً ورب أسرة مثالياً. فعندما توفيت زوجته الأولى، التي كان يعاملها بكل المحبة واللطف جلب عبدة (جارية) شركسية من القسطنطينية واتخذ منها زوجة له وعاش معها أيضاً حياة زوجية في غاية السعادة. لكن هذا الزواج أيضاً كانت له بالنسبة لبشير خلفيات سياسية. فلم يختر زوجته من عائلة لبنانية لكي لا يرفع مكانة العائلة التي يتزوج منها. تعين على الجارية الشركسية أن تعتنق أولاً المسيحية لكي يكون للأمير نقطة احتكاك أخرى مع الموارنة. ومنذ الآن كان استعداء الموارنة على الدروز وتحريض الدروز ضد الموارنة الوسيلة الفعالة التي استخدمها بشير للمحافظة على مركزه في لبنان.



ولكن عندما أجبرت السياسة التوسعية للمصريين إبراهيم باشا على متابعة التقدم نحو الشمال تطلّب هذا مزيداً من الأموال والرجال. أبدى اللبنانيون قبولاً لدفع مزيد من الضرائب لكن مطالبتهم بإرسال رجال للخدمة في القوات المصرية النظامية قوبلت بغضب شديد من الدروز والموارنة على حد سواء. ولذلك طلب إبراهيم جمع السلاح من جميع السكان. فقام بشير في أول الأمر بنزع أسلحة الموارنة بمساعدة الدروز الذين وعدهم بأنه لن ينزع أسلحتهم. ولكن ما أن انتهى من جمع أسلحة المسيحيين حتى ظهرت القوات المصرية في لبنان وأجبرت الدروز على تسليم بنادقهم حيث قدم لهم الموارنة خدمات استطلاعية واستخباراتية. وبعدما أصبح السكان عزلاً من السلاح استغلهم جباة الضرائب بصورة بشعة مما تسبب في نشوب ثورات في مختلف أرجاء لبنان. وبناء على نصيحة بشير قام إبراهيم باشا بتسليح الموارنة ضد الدروز. وعلى الرغم من أن الدروز كانوا متفوقين على المسيحيين بقدراتهم الحربية وشجاعتهم فقد اضطروا إلى الخضوع والانسحاب أمام تفوق الأسلحة المارونية والمصرية الموحدة إلى غرب سورية.

إلا أن الأخطر من كل الاضطرابات التي حدثت حتى الآن كانت ثورة دروز حوران التي اندلعت في نهاية عام 1839م[1].

---

(1) انظر راي ،رحلة في حوارن خلال عامي 1857م و1858م، باريس، بدون تاريخ، ص23 وما بعدها.



وكان السبب المباشر للثورة أن إبراهيم باشا أراد تجنيد 175 رجلاً من حوران في الخدمة العسكرية وكلف والي دمشق شريف باشا بتنفيذ هذا الأمر. وعندما اعترض زعيم دروز حوران الشيخ حمدان على هذا الأمر وقال إنه لا يستطيع التخلي عن هذا العدد من الرجال القادرين على حمل السلاح لأنه يحتاجهم للدفاع عن الجبل ضد هجمات البدو والمسيحيين، أرسل شريف باشا قوة قوامها أربعمائة رجل إلى أم الزيتون لكي يجند الرجال المطلوبين بقوة السلاح. فقام الدروز بقتل جميع أفراد القوة ولم ينج منها إلا قائدها الذي ولّى هارباً. على إثر ذلك أرسل إبراهيم ست كتائب إلى حوران. لكن الدروز انسحبوا إلى اللجاة حيث تبعتهم القوات المصرية إلى هناك. وعانى المصريون جهداً من وعورة المنطقة وصعوبة التحرك فيها ولم يفسح الدروز أي مجال لنشوب معركة نظامية، بل ألحقوا بالعدو من مخابئهم التي يصعب الوصول إليها خسائر فادحة. وكان الجنرال محمد باشا قد قتل في بداية الحملة، وفي اصطدام قرب جدّل، حيث حاولت ثلاث كتائب مصرية احتلال مواقع الدروز، قتل جنرالان وأكثر من ثلاثمائة عسكري. أدت هزائم المصريين إلى تولد الانطباع في جميع أنحاء سورية بأن دروز حوران يتلقون الذخيرة والدعم من جميع الأطراف. ولذلك قرر إبراهيم تغيير خطته العسكرية. فأمر باحتلال مواقع المياه في اللجاة واحداً تلو الآخر وتجفيفها وأجبر بذلك الجزء الأكبر من



الدروز على الخروج من مخابئهم والتوجه إلى سفوح جبل حرمون، إلى منطقة راشيّا وحاصبيّا. إلا أنه اضطر، من أجل مراقبة اللجاة، لترك جزء من القوات هناك بقيادة سليمان باشا الذي اتخذ مقره الرئيسي مقابل المسميّة.

لم يساهم انتصار إبراهيم باشا على القوات التركية في نزب (1839م) في تعزيز مركزه في سورية. ونظراً لانتشار إشاعات متكررة بأن هناك نية لقيام الحكومة بحملة تجنيد إجباري عامة ساد جو من القلق العارم لدى سكان جبل لبنان، وتحت ضغط الخطر المشترك اتحد أخيراً الدروز والموارنة[1]. وعندما أراد محمد علي تشكيل حرس وطني لحماية السواحل المصرية، وطلب من الموارنة تسليم الأسلحة التي كانت قد أعطيت لهم ليسلّح بها الحرس الجديد، اندلعت ثورة عارمة في الجبل (1840م). أفواج من الثوار الغاضبين، وكان بينهم في مراكز قيادية بعض المغامرين الفرنسيين، زحفوا نحو طرابلس وصيدا وبيروت. ويوماً بعد يوم ازداد عدد الثوار وانضم إليهم ليس فقط أمير المتاولة كنج بل وأيضاً العديد من الشهابيين. وعلى الرغم من ذلك بقي بشير في قصره في بيت الدين دون أن يتعرض لأي أذى. شكل المصريون ثلاثة جيوش للسيطرة على الموقف[2]، وحدث اصطدام عند زحلة

---

(1) آنذاك تقدم الدروز والموارنة بالتماس إلى السلطان طلبوا فيه منه طرد المصريين وبشير.

(2) انظر بريبه، نفس المرجع السابق، ص380.



تحمل الموارنة وحدهم خسائره لأن الدروز تخلوا فجأة عن مساندة رفاقهم متأثرين بما دبره بشير من دسائس. وبذلك بلغت الثورة نهايتها قبل الأوان. صحيح أن الموارنة أبدوا بعد ذلك بعض المقاومة في أماكن متفرقة، وخاصة في دير القمر، إلا أنه سرعان ما تمَّ التغلب عليهم وأرسل قادتهم إلى المنفى.

في هذه الأثناء كان الرأي العام في أوروبا قد أصبح ضد محمد علي. وكان الأتراك قد أرسلوا قوات لمحاربة القوات المصرية التي كانت لم تزل تحتل سورية. وجاء أسطول إنجليزي نمساوي إلى بيروت واحتل المدينة لصالح الأتراك. فأعلن الدروز صراحة وقوفهم إلى جانب سيدهم السابق السلطان. عندئذ سحب محمد علي آخر قواته من سورية وانتهى بذلك الحكم المصري لها الذي دام ثمان سنوات. في هذا الوقت العصيب حاول الأمير بشير مرة أخرى اللجوء إلى عقد التحالفات[1] لكن السلطان عزله من منصبه، فصعد في 12 أكتوبر/ تشرين الأول 1840م في صيدا إلى سفينة إنجليزية نقلته إلى مالطا. وفي وقت لاحق تمَّ احتجازه في القسطنطينية حيث توفي عام 1851م.

يتحمل الأمير بشير بالمقام الأول المسؤولية عن أن التناقض بين الموارنة والدروز كانت له في العقود اللاحقة عواقب وخيمة. كجزيرة عربية في لبنان وجدنا أتباع تعاليم الدرزي في القرن

---

(1) انظر باتون، تاريخ الثورة المصرية، الجزء الثاني، ص190.



الحادي عشر. وتحت قيادة عائلات إسلامية احتلوا مكانة مهيمنة على جيرانهم الموارنة، الذين كان المهاجرون من عرب الجنوب قد طردوا في ماضي الزمان أسلافهم من أماكن سكنهم، وعلى المتاولة أحفاد الإسماعيليين السوريين القدامى. ولكن شيئاً فشيئاً تكونت علاقة صداقة بين الدروز والموارنة، فسكنت عائلات درزية في المناطق المارونية واستوطن موارنة في الشوف ومناطق درزية أخرى. وتم الاعتراف بالدروز على أنهم الفئة الأرقى والسادة الاقطاعيين. إلا أن الصراعات المتواصلة بين العائلات الدرزية، والخوف من تعاظم قوة بعض العائلات على حساب الأخرى، جعلت الموارنة في عهد بشير يكتسبون أهمية متزايدة في التنافس على المركز الأول في لبنان. أما المتاولة فقد أخرجهم الدروز والموارنة من لبنان. بعض الحسابات السياسية دفعت بعض الشهابيين وأبي اللمع إلى اعتناق المسيحية[1] وبذلك ازداد بطبيعة الحال نفوذ الموارنة. لكن بشير شهاب هو الذي أذل الدروز عامداً متعمداً وشد من أزر الموارنة بحيث صاروا يتعالون بطريقة مهينة على سادتهم الدروز كمالكين للأراضي. وهو بذلك يتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية التاريخية عن الأحداث المشؤومة التي هزت لبنان وسورية بكاملها بعد عزله مباشرة.

كان الموارنة قد تخلوا منذ زمن طويل عن الانقياد وراء

---

(1) انظر كتاب من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج، ج1، ص172، الملاحظة 3.



شيوخهم العائليين. فقد حاول الشهابيون جعلهم تابعين لهم وقاموا لهذا الغرض بدعم عنصر كان حتى ذاك الحين ذا تأثير ضعيف هو رجال الدين. فعن طريق السخاء في منح رجال الدين الموارنة الأملاك والثروة أصبح هؤلاء أصدقاء للشهابيين وأعدوا في الوقت نفسه ليكونوا قادة للجماهير. وقد سبق وأشرنا[1] إلى العلاقات الودية القائمة بين فرنسا والكنيسة المارونية. والسياسة الودية التي اتبعها بشير تجاه الموارنة، والذي كان حليفاً لمحمد علي الذي يدعمه الفرنسيون، ومشاركة مغامرين فرنسيين في الثورات التي قام بها الموارنة، وسلوك القناصل الفرنسيين في سورية[2] ـ كل ذلك جعل كل فرد ماروني يعتقد أنه متمتع بحماية فرنسا.

بدلاً من الأمير بشير العجوز تمَّ تعيين بشير شهاب قاسم، الذي كان يجاهر علناً بعقيدته المارونية، حاكماً على لبنان، وكان بشير هذا رجلاً وضيعاً غير قادر بأي حال على أداء المهمة الصعبة التي أسندت إليه[3]. تلقى الدروز هذا التعيين، الذي كان يعني تنازلاً للسكان المسيحيين في لبنان، بكثير من الريبة والحذر لأنهم توقعوا مزيداً من الإهانات لشعبهم. وبعد وقت قصير أصدر البطريرك الماروني تعميماً طالب فيه الموارنة بتعيين رجلين في كل قرية توكل

---

(1) انظر كتاب من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج، ج1، الفصل الأول، ص30 وما بعدها.

(2) انظر برييه، نفس المرجع السابق، ص381 وما بعدها؛ تشرتشل، نفس المصدر السابق، ص114 وما يليها.

(3) انظر تشرتشل، نفس المصدر السابق، ص37.



إليهما مهام الحكومة المحلية. وعند تنفيذ هذا الإجراء كان ذلك بمثابة سلب الشيوخ الدروز الامتيازات الاقطاعية التقليدية التي كانوا يتمتعون بها. ومن المفهوم أن هذا الإعلان، الذي رحب به الموارنة بسرور صاخب في دير القمر، أثار لدى الدروز أشد المخاوف. وهكذا وقع بعد وقت قصير، في 14 سبتمبر/ أيلول 1841م، في دير القمر الاصطدام الدموي الأول بين أتباع الحزبين والذي قتل فيه خمسة مسيحيين وستة عشر درزياً وجرح العديد من الأشخاص[1]. كان هذا الحدث الشرارة التي أدت إلى قيام الدروز بفرض حصار كامل على دير القمر. وأشعلت النيران في المدينة التي كان موجوداً فيها الأمير بشير قاسم ودمرت القرى المجاورة وراح العديد من الموارنة ضحية الغضب الدرزي. إلا أن القنصل العام الإنجليزي تمكن أخيراً من إنقاذ دير القمر من الإبادة الكاملة وتجنيب سكانها مجزرة شنيعة عامة. غير أن محاصرة المدينة استمرت ثلاثة أسابيع أخرى تعين على الموارنة خلالها تسليم أسلحتهم والموافقة على الانسحاب من المدينة بطريقة مهينة، وكان على رأس المغادرين الأمير بشير نفسه. ومما يعبر عن الظروف التي كانت سائدة آنذاك أن الملكيين[2]، أي الكاثوليك الشرقيين، وقفوا

---

(1) كان القائد على الجانب الدرزي ناصيف بك أبو نكد.

(2) يقال بأن جزءاً كبيراً من اللبنانيين الكاثوليك الشرقيين لم يهاجروا إلى الجبل إلا في العصور الوسطى. ويبدو أنهم ظلوا حتى أحداث 1860م يعانون الكثير من غرور رجال الدين الموارنة وعدم تسامحهم.



هذه المرة أيضاً، كما في جميع النزاعات السابقة بين الدروز والموارنة، إلى جانب الدروز. حقق الدروز نصراً حاسماً لا جدال فيه، وإذا ما كانوا لم يستغلوه إلى ما هو أبعد من ذلك فإن الفضل في ذلك يعود إلى اعتدال قائدهم المحترم نعمان جنبلاط.

في يناير/ كانون الثاني 1842م عزل الأمير بشير شهاب من منصبه وأرسل إلى القسطنطينية، وكلف عمر باشا، وهو منشق هنغاري حصد أكاليل الغار في وقت لاحق في حرب القرم، بتسيير الأمور في لبنان. لكن الدروز أصابهم بعض الغرور بسبب انتصاراتهم وأصر شيوخهم على امتيازاتهم الاقطاعية القديمة وصمموا على عدم الاعتراف بالإدارة التركية. واتهموا عمر باشا، الذي لا ينكر أصله المسيحي، بأنه يحابي الموارنة. وفي نوفمبر/ تشرين الثاني 1842م قام الدروز بزحف على بيت الدين حيث كان المعسكر الرئيسي لعمر باشا. غير أن كتيبة من القوات التركية والألبانية هجمت على الدروز من الخلف بينما كان عمر باشا يتصدى لهم مع حاميته وفصيلة من الخيالة الموارنة. بعد مقاومة شجاعة تفرقت صفوف الدروز وفر شيوخهم إلى حوران وأُلقي بكثير من الدروز المرموقين بالسجن في بيروت.

الآن قسم الباب العالي لبنان إلى قضاءين إداريين واعتبر خط بيروت دمشق الحد الفاصل بينهما. في المناطق الشمالية عيّن قائمقام ماروني وفي المناطق الجنوبية قائمقام درزي. تمَّ في هذا



التعيين تجاوز الشهابيين كلياً، إذ كان الباب العالي قد اقتنع بأنه لم يعد يستطيع حكم لبنان بواسطتهم، كما أنهم لم يوضعوا في الاعتبار عند إجراء التعيينات القيادية اللاحقة. أما في القضاء الجنوبي الدرزي فلم يعيّن القائمقام من بين أفراد أقوى وأغنى عائلة، آل جنبلاط، وإنما من عائلة أرسلان التي كانت تحظى بسبب نسبها باحترام كبير لدى جميع الدروز لكنها كانت قد فقدت كثيراً من ثروتها ونفوذها. في المنطقة المارونية عيّن الأمير حيدر إسماعيل أبي اللمع قائمقاماً الذي كان أفراد عائلته سادة المتن منذ زمن طويل. أصبحت الشويفات، التي كانت يقيم فيها آل أرسلان، مقر الحكومة الدرزية، وأصبحت بكفيّا المقر الرسمي للحكومة المارونية. وفي دير القمر، التي رفض سكانها الرضوخ للدروز مهما كانت الظروف تمَّ تعيين مدير تركي.

ولكن بعد أقل من عامين وقعت مجدداً نزاعات دامية بين الدروز والموارنة في لبنان. هذه المرة أرسل الباب العالي شكيب أفندي من القسطنطينية إلى مسرح الاضطرابات. قام شكيب أفندي بعزل الأمير أحمد عباس أرسلان من منصبه وعين مكانه الأمير الأذكى أمين أرسلان رئيساً للقضاء الدرزي. انتهت العداوة بانتصار الدروز وعاد السلام إلى لبنان. في عام 1859م توفي الأمير أمين أرسلان وعين مكانه ابنه الذي كان رجلاً مثقفاً خضع لتربية نصف أوروبية، وكان يتكلم لغات أجنبية ويؤلف الكتب، لكنه لم يكن رجلاً محارباً.



بعد وقت قصير اندلع النزاع مجدداً بين الدروز والموارنة. كان على رأس الحركة المارونية الأسقف المخادع وذو النفوذ الواسع طوبيا في بيروت الذي كانت علاقاته الجيدة مع القنصلية الفرنسية معروفة للجميع. كان قائمقام لبنان الشمالي في ذلك الوقت الأمير بشير أبي اللمع الذي خلف أحمد أبي اللمع. هذا الثالوث[1] المؤلف من القنصل العام الفرنسي والأمير أبي اللمع والبطريرك الماروني عزز النفوذ المسيحي في سورية فترة طويلة من الزمن إلى درجة أن السكان المسلمين في بعض المناطق شعروا بأنهم مهددون وسعوا إلى التحالف مع الدروز. إلا أن اتحاد الدروز والمسلمين دفع الملكيين إلى الوقوف إلى جانب الموارنة على الرغم من أنهم عانوا الكثير من غرورهم وعدم تسامحهم وخاصة في زحلة[2]. وهكذا أصبح الآن جميع مسيحيي لبنان في حالة استنفار. قدّر المسيحيون عدد رجالهم في الجبل بما لا يقل عن 60,000 مسلّح بينما قدروا عدد القوات الدرزية بأقل من 13,000 رجل. عندما وقع الصدام بعد وقت قصير وقفت الحكومة التركية في بادئ الأمر على الحياد المحسوب بمنتهى الدقة. كان الدروز في نهاية المطاف هم المنتصرون في هذه

(1) انظر تشرتشل، نفس المصدر السابق، ص119، 121، 125.

(2) انظر جول فيريته في مجلة العالمية، الجزء 28، باريس 1860م، ص1009.



المعارك وذلك بفضل انضباطهم العسكري الذي ألغى العلاقة الاقطاعية بين الشيخ وأتباعه وحقق الطاعة العمياء للقائد والاستعداد للتضحية غير المشروطة. رغم ذلك انتهى اختبار القوى الدامي بهزيمة سياسية للدروز وأدى إلى تغيير الظروف السائدة في لبنان تغييراً كاملاً.

في البداية حدثت (في 30 أغسطس/ آب 1859م) في قرية بيت مري مشاجرة بالأيدي مُني الدروز خلالها بهزيمة منكرة. أمضى الدروز الخريف والشتاء التالي في اتخاذ الاستعدادات الحربية الشاملة. جمع سعيد بك جنبلاط جميع شيوخ الدروز في المختارة وبعد وقت قصير بدأت في جميع قرى الجبل الاحتكاكات بين الدروز والمسيحيين. وأخيراً وقعت في عين داره قرب زحلة معركة (27 مايو/ أيار 1860م) انتصر فيها 600 درزي على 3000 مسيحي وأجبروهم على الفرار. استغل الدروز انتصارهم بلا رحمة أو هوادة. فقاموا بحرق القرى وقتل كثير من الناس في الطريق التي مرت بها قواتهم. ركّز سعيد بك الآن قواته على دير القمر التي كانت قد سقطت في يد الدروز في 2 يونيو/ حزيران؛ سمح للمسيحيين في بادئ الأمر بالاحتفاظ بأسلحتهم لكنهم منعوا من مغادرة المدينة. وفي الثالث من يونيو/ حزيران ظهر جيش درزي أمام حاصبيّا؛ وبعد مقاومة قصيرة تمَّ احتلال البلدة، ثم تخليص السكان الذكور أسلحتهم وحبسهم في السراي. وبعد ذلك حدثت أولى المجازر الشنيعة بحق المسيحيين العزل.



فقد قام الدروز، الذين كانت تحرضهم أخت جنبلاط المتعصبة، الست نايفة، بذبح مئات المسيحيين في ساحة السراي دون أن يتدخل عثمان باشا بما لديه من قوات احتلال[1].

شن الدروز هجومهم الثاني على زحلة التي تعد قلعة المارونية. وكان قد جاء من دروز حوران 3000 رجل بقيادة إسماعيل الأطرش لمساندة رفاقهم اللبنانيين، كما أن الأكراد والبدو، وحتى المتاولة، هبّوا لمساعدة الدروز الذين تقدموا بقيادة خطّار بك عماد. وبعد عدد من الاشتباكات الصغيرة المتكررة وقعت في 18 يونيو/ حزيران 1860م المعركة الحاسمة التي مني فيها الموارنة بهزيمة نكراء. فدخل الدروز إلى زحلة وأشعلوا النيران في المدينة، وقتلوا كل من طالته يدهم ممن لم يستطيعوا الهرب إلى الجبال أو إلى المناطق المارونية، لكنهم حافظوا على حياة النساء والأولاد القاصرين. وبعد يومين تكررت في دير القمر مجزرة حاصبيا، فذبح في سراي المدينة 1200 مسيحي[2]. وهنا أيضاً اتخذ جنود الاحتلال الأتراك موقف المتفرج.

الآن أخذ الهيجان الرهيب الذي هز منطقة لبنان ينتقل إلى مناطق

---

(1) أن يكون موقف عثمان باشا لم ينل إعجاب زملائه فهذا ما تؤكده أقوال فيريته، نفس المرجع السابق، ص1011.

(2) زعم مصدر معلوماتي أمامي أن أبناء العائلات الدرزية المحترمة لم يشاركوا في هذه الأعمال البشعة وفعلوا كل ما في وسعهم لوقف إراقة الدماء، وأن المجازر كانت حصراً من فعل الأشرار والسفلة. انظر تشرتشل، نفس المصدر السابق، ص191.



أخرى وصعّد تعصب المسلمين إلى خطر مباشر على المسيحيين في سورية بكاملها. وأخيراً حدثت في 9 يوليو/ تموز 1860م مجازر دمشق المعروفة. وبذلك أصبحت الاضطرابات السورية حدثاً يهم السياسة الأوروبية. فأرسل السلطانُ فؤاد باشا، وهو من أكفأ رجالات الأمبراطورية، لكي يعيد حالة السلام وتدخلت القوى الأوروبية أيضاً، فنزل 10,000 فرنسي بقيادة الجنرال ديفور في سورية لكنهم لم يطلقوا طلقة واحدة. وضحّت الحكومة التركية بمبالغ ضخمة لكي تحسن حالة المسيحيين البائسين. فأعيد بناء دير القمر، التي كانت قد دمرت تماماً، على حساب الحكومة، وأعيد العمل بالنظام الجديد الذي عرضناه سابقاً[1].

منذ ذلك الحين بقي الوضع هادئاً في لبنان ولم تحدث معارك بين الحزبين الدينيين. وبسبب تدخل القوى الكبرى حُرم الدروز من قطف ثمار انتصاراتهم وأعمالهم البشعة. صحيح أنه أصبح عند شغل المناصب الإدارية المحلية تؤخذ بعين الاعتبار العلاقة العددية للدروز والموارنة، والأقضية ذات الغالبية الدرزية ترسل مندوبين دروزاً إلى المجلس الإداري. لكن السلطة الكاملة للحاكم السابق أصبحت الآن في يد محافظ مسيحي، وفقط في قضاء واحد من الأقضية اللبنانية السبعة[2]، وهو قضاء الشوف،

(1) من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج، ج1، الفصل الأول، ص48.
(2) المصدر السابق، ص51.



يحتل منصب القائمقام رجل درزي. فضلاً عن ذلك فقد ذهب نفوذ العائلات الدرزية الوجيهة ولم يبق سوى مظاهر الاحترام التقليدية في التعامل الشخصي أو المخاطبة الخطية لأبناء العائلات القديمة[1] والتي تذكر بالحقبة الاقطاعية من تاريخ لبنان. ويفسر ماضي الدروز السبب الذي يجعلهم لا يتكيفون إلا بصعوبة وبطء مع شروط الحياة العصرية المنظمة. ولذلك غادر العديد من الدروز لبنان وتوجهوا إلى حوران.

لم يزل الفرق الحزبي التاريخي بين الجنبلاطيين واليزبكيين قائماً من ناحية الاسم حتى يومنا هذا ولكنه أصبح الآن بدون أهمية عملية وتحول إلى منافسة على المناصب المخصصة للدروز وعلى مراكز النفوذ في لبنان. يقف في هذا التنافس على الجهة الأولى آل جنبلاط الذين هم اليوم أغنى عائلات الجبل وأوسعها ملكية عقارية وعلى الجهة الأخرى آل أرسلان الذين هم العائلة الأوجه من ناحية النسب ويتزعمهم قائمقام الشوف الحالي الأمير مصطفى باشا أرسلان[2]. أما في أوساط الشعب الدرزي العادي

---

(1) انظر أيضاً ريتّر، نفس المرجع السابق، الجزء 17، ص715، 716. كما أن تقييد الزواج داخل المجموعات الأسرية المختلفة ظل قائماً.

(2) من عائلة أبي اللمع هناك بعض الفروع التي تقف إلى جانب الجنبلاطيين ومنها مراد أبي اللمع وعيد أبي اللمع بينما يقف قاضي بك أبي اللمع إلى جانب آل أرسلان.



فقد تشكّل منذ حوالي نصف قرن انقسام غريب من نوعه بين الشقراوي والصمدي. حصل الشقراويون على اسمهم من العائلة الفلاحية الغنية والقوية «أبو شقرا» وسُمي خصومهم نسبة إلى العائلة الفلاحية «أبو صمد». كلا العائلتين ينحدران من عماطور. جميع دروز لبنان، وأكثر من ذلك فحتى السكان المسيحيون في القرى الدرزية في الجبل، منضمون إلى هذه المجموعة أو تلك، لا بل إننا نجد في جنوب لبنان قرى مسيحية بالكامل منضمة إلى هذا التحزب. وعلى الرغم من العداوة القائمة بين المجموعتين فإن أفرادهما يتزاوجون فيما بينهم لكن نزاعاتهما تكون غالباً دموية جداً. قبل 40 عاماً سقط في عماطور في نزاع كهذا أكثر من 40 قتيلاً من الجانبين، وظل القتال مستمراً إلى أن أوقفه النساء اللواتي فقدن على هذا الجانب إخوتهن وعلى ذاك الجانب أزواجهن.

كما أن ظروف السكان المسيحيين في لبنان تغيرت أيضاً. يشكل الموارنة، كما ذكرنا أعلاه[1]، الكتلة العريضة من السكان وهم يخضعون عموماً لسلطة رجال الدين التي يسعى كثير منهم في الآونة الأخيرة إلى التحرر منها عن طريق «الاغتراب». فالجزء الأكبر من الملكيات العقارية اللبنانية موجود في يد رجال الدين الموارنة الذين ظلوا أيضاً على الدوام أحد عوامل القوة السياسية. بالمقابل ترسخ في لبنان إلى جانبِ الموارنة الكاثوليك الشرقيون

---

(1) انظر من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج، ج1، الفصل الأول، ص20 وما بعدها.



وأعضاء الطوائف المسيحية الأخرى الذين يشكلون نتيجة حبهم الكبير للتعلم الجزء المتنور والمتفوق فكرياً من السكان المسيحيين، كما أن حالتهم المادية أفضل على وجه العموم. وهؤلاء العناصر بالذات هم الذين يشغلون في الوقت الحاضر جميع المناصب العالية في الحكومة اللبنانية ويملكون بالتالي السلطة الحقيقية.

بقيت علاقات فرنسا مع السكان المسيحيين في لبنان دون تغيير. بالمقابل وقفت بريطانيا منذ نهاية حكم بشير شهاب إلى جانب الدروز. وعندما طالبت فرنسا في المفاوضات التي دارت بين القوى الأوروبية والباب العالي بعد أحداث عام 1860م بإعدام 1500 درزي، من بينهم رؤساء جميع العائلات الوجيهة، طلبت بريطانيا إعدام عدد مماثل من الموارنة من ضمنهم الأسقف طوبيا[1]. كان هذا الموقف يرمي بشكل واضح إلى المحافظة على الدروز كقوة مقابلة للمسيحيين في لبنان والحيلولة بهذه الطريقة دون نشوء في يوم من الأيام «محمية» فرنسية في سورية. حتى ذاك الحين كان الجنبلاطيون يعتقدون أنهم المفضلون لدى الإنجليز[2]، ولكن منذ عام 1860م صار اليزبكيون أيضاً يعتبرون الإنجليز أصدقاءهم. وأنا شخصياً شاهدت في المختارة، مقر

---

(1) نتيجة لذلك تخلى الباب العالي عن الإعدامات وتم نفي قادة المشاغبين الدروز إلى تركيا الأوروبية وطرابلس (الغرب).

(2) بتأثير النفوذ الإنجليزي استعاد نعمان جنبلاط، خليفة بشير جنبلاط المخنوق، الأملاك التي صادرها المصريون في عهد الأمير بشير=



إقامة بيت جنبلاط، صور اللورد دافرين وغيره من الشخصيات الإنجليزية البارزة موقعة من أصحابها مع إهداء لطيف جداً ومعلقة في غرف استقبال القصر في أفضل مكان. من المؤكد أن موقف الإنجليز كانت له إلى جانب الحسابات السياسية دوافع مذهبية: فرنسا كانت تسعى دائماً، بمساعدة الموارنة، إلى إفشال كل نشاط للبعثات التبشيرية الإنجليزية والأمريكية في لبنان وبالتالي منع انتشار المذهب البروتستانتي هناك[1]. وعلى عكس الجنبلاطيين يتحاشى آل أرسلان، لأنهم الخصوم السياسيون لآل جنبلاط في لبنان، الظهور بمظهر الأصدقاء لبريطانيا؛ وهم يعتمدون الآن على الحكومة التركية اعتماداً كاملاً. العديد من أبناء مصطفى أرسلان يعملون في القسطنطينية وأحدهم موظف في وزارة الخارجية التركية.

بدأ الاستيطان الجديد للدروز في حوران، كما ذكرنا أعلاه[2]، بعد معركة عين داره عام 1711م. ولكن منذ ذلك الوقت لم تتوقف هجرة عائلات درزية من لبنان والحرمون إلى حوران، ثم اتخذت هذه الحركة حجماً أكبر عندما أصبحت، في عهد الأمير بشير شهاب، اليدُ العليا للموارنة، وعلى الأخص عندما

= شهاب. كما أن إسماعيل جنبلاط، الابن الأصغر للشيخ بشير جنبلاط، تلقى تربيته في بريطانيا (انظر تشرتشل، نفس المصدر السابق، ص88).

(1) انظر تشرتشل، نفس المصدر السابق، ص40 و42.

(2) من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج، الفصل الثالث، ص116.



أصبحت الظروف في وقت لاحق، بعد عام 1860م، لا تناسب طباع الدروز الذين يرفضون الطاعة وعلاقة التبعية المنظمة. في حوران كان الدروز يعيشون مستقلين تماماً، لم يكونوا يدفعون ضرائب وكان النظام الاقطاعي المتوارث منذ القدم ينظم وحده العلاقة بين فوق وتحت. وكان السادة الحقيقيون للبلد بعض عائلات الشيوخ التي يقودها آل حمدان. وكان الفلاحون يقدمون لهم ما يفيض عن حاجتهم من إنتاج الأرض التي كانت خصبة جداً مما جعل الجميع يعيشون في حالة من الرخاء. وكانت البيوت الحجرية المهجورة، المبنية منذ مئات السنين والتي كان يقيم فيها سكان حوران السابقون، توفر على الفور للقادمين الجدد مساكن شبه جاهزة، إذ لم يكن ينقصها سوى الأبواب. كما أن حب الدروز للقتال لقي ضالته هنا، ففي كل مساء تقريباً يطلق إنذار الخطر (الفزعة). في البداية كان الاهتمام منصباً على محاربة بدو الجبال الذين كانوا معتادين على رعي قطعانهم هناك جزءاً من السُّنة على الأقل وكانوا يعتبرون أنفسهم حراس الجبل. وعندما طردوهم أو فرضوا عليهم علاقة التبعية والطاعة، تعين عليهم التصدي للهجمات المتواصلة التي يشنها لصوص البدو أو القبائل الأكبر المقيمة في السهل.

ساعدت الهجرات الجديدة إلى حوران التي كان سببها وصول الأخبار إلى الحرمون ولبنان بأن الظروف المعيشية في



حوران أفضل جداً من ظروفهم، ساعدت العائلات القيادية على تعزيز مركزها لأنها كانت تدعم القادمين الفقراء بالأموال والمؤن. وكان آل حمدان قد استقروا في جنوب حوران حيث كان يعيش آل نصر أيضاً، بينما كان يعيش في الشمال آل عمرو. وبعد انقراض آل حمدان بعد واكد حمدان حل مكانهم آل الأطرش[1] الذين كان رئيسهم إسماعيل الأطرش قد ذهب في عام 1860م، كما ذكرنا سابقاً، مع ثلاث آلاف رجل من دروز حوران للمشاركة في المعارك الدائرة في لبنان[2].

أدى الرخاء المتنامي، والشعور بالتفوق العسكري على البدو، وذكرى الانتصارات على المصريين، إلى جعل دروز حوران يغترون بقوتهم إلى درجة أن الحكومة التركية رأت نفسها في عام 1852م مضطرة إلى إرسال قبرصلي باشا إلى حوران على رأس جيش قوامه 35,000 رجل. وقبل الوصول إلى الجبل حدث في السهل عند غباغب الاشتباك الأول، لكن اندلاع حرب القرم[3] أدى إلى إيقاف الحملة مبكراً. أدى هذا الحدث إلى تعاظم ثقة الدروز بأنفسهم وازدياد غرورهم. على الأخص في

---

(1) عندما تجولت في حوران عام 1893م وجدت العديد من أفراد عائلة الأطرش في الجزء الجنوبي من الجبل بصفة شيوخ أو كمدراء أرسلتهم الحكومة.

(2) من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج، ج1، ص185.

(3) شارك في حرب القرم حفنة من الدروز تحت إمرة علي بك عماد.



دمشق كانوا يتصرفون بأقصى درجات العنجهية، وكان الدمشقيون لا يواجهونهم لأنهم لم يكونوا يستطيعون التخلي عن علاقاتهم التجارية مع الحوارنة ولأنهم كانوا يعرفون أن قتل أي درزي سيؤدي إلى انتقام مضاعف.

ولكن عندما نهب الدروز في عام 1879م قرية الشرفاء الإسلامية بصر الحريري أرسل مدحت باشا، الذي كان آنذاك والياً على دمشق، الجنرال جميل باشا إلى حوران. وقعت المعركة عند قراته بالقرب من بصر الحريري وفقد فيها الدروز بسبب تفوق الأسلحة التركية 150 رجلاً من خيرة الخيالة. فانسحبوا ظاهرياً لكنهم فاجأوا الأتراك أثناء تناول الطعام وقتلوا 500 جندي مما جعل جميل باشا يولّي هارباً. فجهز مدحت باشا الآن قوة أكبر لمحاربة دروز حوران لكنه سرعان ما أدرك أن الحرب مكلفة جداً مادياً وبشرياً. ولذلك فضل الاتفاق مع الدروز بالطرق الودية. وكانت هناك أسباب مختلفة تؤيد مراعاتهم بشكل خاص. فقد كانت لهم علاقات جيدة مع دروز لبنان الذين كانوا يشكلون قوة مقابلة للموارنة الموالين لفرنسا ومن أصدقاء المسلمين في سورية. ومن ناحية أخرى كانوا يشكلون سداً ضد غزو الوديان السورية الخصبة من قبل القبائل البدوية الكبيرة الموجودة في الصحراء العربية. إذ حتى أقوى القبائل كولد علي والرولة لم تعد تجرؤ على الاقتراب من جبل حوران. فالسلسلة الجبلية التي كانت في السابق



خالية من السكان أصبحت بوجودهم مأهولة من جديد وتحولت إلى منطقة زراعية خصبة. وكانت دمشق تحقق أرباحاً كبيرة من تجارة الحبوب مع حوران، كما تبين أيضاً أن أي حملة ضد دروز حوران كانت تؤدي إلى ارتفاع كبير لأسعار الحبوب في جميع أنحاء سورية.

لذلك عيّن مدحت باشا أحد شيوخهم، شبلي بك تلحوق، قائمقاماً لحوران، مقره السويداء، وقد تمكن تلحوق من إقناع الدروز باتخاذ موقف ليّن ومن تنظيم الأمور من جديد. تمَّ تقسيم المنطقة إلى ثمان مديريات وتعيين مدراء لها من الدروز حصراً، كما تمَّ تشكيل محاكم وإقامة ثكنات عسكرية في السويداء وبصرى، وفي وقت لاحق أرسلت مفارز عسكرية إلى بصر الحريري والمسميّة والمزرعة. وأصبحت السويداء أيضاً مقر القيادة العسكرية للقوات التي نقلت إلى حوران لدعم القائمقام ومراقبته في آن واحد. لم يكن الدروز مرتاحين ضمن هذه الظروف الجديدة، ولذلك ظل الإصلاح الإداري مسألة ظاهرية فقط وعمّ الاستياء في كل مكان. استغل هذه الظروف الرجل الماكر إبراهيم الأطرش، الذي أصبح بعد وفاة أبيه إسماعيل المذكور أعلاه، زعيم العائلة لطرد شبلي بك تلحوق وأخذ مكانه كقائمقام لقضاء حوران.

في هذه الأثناء كانت قد نشأت في أوساط الفلاحين الدروز



في جبل حوران حركة تطالب برفض العرف التقليدي القديم الذي ينص على إعطاء الشيخ ثلث المحصول. تزعم هذا الحزب الفلاحي (العاميّة) الرجل الطموح والمحب للمراتب شبلي الأطرش، أخو إبراهيم، الذي كان مدير العيرة. وبسبب نشاطاته التحريضية المستمرة اتخذت الحركة طابعاً ثورياً واضطر العديد من الشيوخ إلى الهرب خوفاً من أتباعهم المتمردين[1]. ولعب الاستياء من النظام الإداري المفروض بالقوة دوراً كبيراً في هذه الاضطرابات. فطلب الدروز من إبراهيم الأطرش التخلي عن لقب القائمقام والعودة إلى لقب شيخ المشايخ[2]. وأخيراً اضطر إلى الهرب إلى دمشق حيث طلب الدعم من الحكومة فوضع والي دمشق تحت تصرفه قوة كبيرة بقيادة منصور بك لكي يحارب بها، مع من بقي موالياً له من الدروز، أبناء شعبه. وبعد انتصاره في المعركة التي وقعت قرب السويداء عاد سيد الموقف. فأعيد تعيينه قائمقاماً لحوران وأعيد المدراء السابقون إلى مناصبهم[3].

إلا أن الأوضاع ظلت مضطربة في الجبل. وأدرك إبراهيم

(1) كان بينهم أيضاً الشيخ محمد نصار شيخ سالي.

(2) كان إبراهيم قد لبس الطربوش كعلامة على أفكاره التقدمية، لكن الدروز طالبوه بالعودة إلى غطاء الرأس الشعبي التقليدي، العمامة. وعندما زرته في السويداء عام 1893م كان قد عاد إلى العمامة.



أنه، لكي يستطيع البقاء في مركزه، لا يمكنه الاستغناء عن دعم الحكومة. وعندما دار الحديث عن تشكيل قوات غير نظامية (حميديّة) من الدروز على غرار ما حصل مع السكان الأكراد في جبال آسيا الصغرى، حاول إبراهيم الأطرش الطلب من الباب العالي دعم هذا المشروع. ولذلك توجه في بداية عام 1893م إلى القسطنطينية مع بعض أصدقائه ومن بينهم محمد نصّار. لكن دمشق حاكت الدسائس ضده واعترضت الحكومة الفرنسية بشدة على تزويد الدروز بأسلحة حديثة[1]. وفي النهاية تخلت القسطنطينية عن المشروع واستقبلت إبراهيم الأطرش بقليل من مراسم التكريم، لكنه مع ذلك حصل مع مرافقيه على أوسمة ومنح هو نفسه لقب «باشا». وعند عودته إلى حوران لقي استقبالاً سيئاً لأنه لم يستطع إقناع الباب العالي بتحرير بعض الدروز الذي نفيوا إلى رودوس بسبب أحداث عام 1890م[2]. وبعد وقت قصير نشبت خلافات جديدة بين الأخوين المتخاصمين شبلي وإبراهيم أصيب إبراهيم خلالها بجرح في قدمه. وبعد ذلك بفترة قصيرة، في

---

(3) منذ هذا الوقت ازداد الوجود العسكري في حوران قوة. عندما جئت إلى هناك عام 1893م كان يوجد حوالي 4 كتائب.

(1) حتى هذا الحين كان تزويد الدروز ببنادق عسكرية يقتصر على عدد قليل ممن كانوا يعملون كسبتية للمدراء.

(2) في وقت لاحق تمَّ تحرير هؤلاء المنفيين بمساعدة آل أرسلان الذين كانوا من أصدقاء إبراهيم الأطرش ـ كان شبلي الأطرش يعتبر صديقاً لآل جنبلاط.



يونيو/ حزيران 1893م، زرته في السويدا[1]، وبعد سفري بأشهر قليلة فارق الحياة.

بعد وفاته كلف عمر بك، الذي كنت قد التقيته عام 1893م كقائد عسكري في السويداء، بتسيير الأمور مؤقتاً مع الاحتفاظ بمنصبه العسكري. في هذه الفترة بقي كل شيء هادئاً في حوران لأن شبلي الأطرش كان يأمل في أنه سيصبح هو نفسه قائمقام جبل الدروز. ولكن عندما تولى المنصب عربي مولود في دمشق بدأت دسائس شبلي من جديد. وقام أتباعه بغزوات سلب ونهب في سهل حوران حتى وصلت شكاوى المتضررين إلى دمشق. فطُلب من عمر بك اعتقال شبلي. نفذ عمر الأمر في خريف 1893م ولكن عند نقل شبلي إلى دمشق هجمت مجموعة من الدروز على الفصيلة المرافقة له بالقرب من قلعة المزرعة وأجبرتهم على الفرار واللجوء إلى القلعة. قام الدروز بمحاصرة القلعة عدة أيام، وعندما تمكنوا من قطع الماء عنها اضطر المحاصَرون إلى تسليم شبلي الأطرش الذي أصيب أثناء الاشتباك بالأيدي بجروح ألحقها به جماعته أنفسهم. بعد ذلك عاد شبلي إلى العيرة. كانت الخسائر على الجانبين كبيرة، وعلى إثر ذلك حلت الحكومة حاميتي السويداء والمزرعة لكي، حسب رأي الدروز، تتخذ من ذلك حجة للثأر. تمَّ تشكيل لجنة من عدد من الوجهاء الدمشقيين برئاسة

(1) من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج، ج 1، الفصل الخامس، ص212.



متصرف الشيخ سعد، التابع له جبل حوران، قامت بالتحقيق في الحادثة وبناء على تعليمات مباشرة من القسطنطينية أُعطي الدروز الأمان وتُرك شبلي الأطرش في منصبه مديراً للعيرة. وبعد عدة أشهر عزل قائمقام جبل الدروز الموجود في السويدا وعُيّن مكانه يوسف باشا زيّا الخالدي. لم يكن هذا المعلم[1] الهادئ مناسباً للمحافظة على الهدوء في حوران. فبعد أقل من عام اندلعت الاضطرابات من جديد، وعزل يوسف زيّا وعيّن مكانه خسرو باشا قائمقاماً لحوران. في هذه الفترة حدثت نزاعات دامية بين الشركس[2] ودروز مجدل شمس على سفوح جبل حرمون. وكادت حالة انعدام الأمن تعم جنوب سورية بكامله. فقامت الحكومة في

---

(1) قام بتأليف كتاب عن قواعد اللغة الكردية وأشياء أخرى.

(2) استوطن الشراكسة عند جبل حرمون، كما في أماكن أخرى كثيرة في سورية، بأعداد كبيرة منذ نهاية الحرب الروسية التركية الأخيرة. يأتي الشركس في المرتبة الأولى بين اللاجئين (المهاجرين) الذين جاؤوا في هذا القرن من مناطق كانت في السابق إسلامية ثم أصبحت في وقت لاحق مسيحية وخاصة منذ التوسع الروسي الكبير في بلدان القوقاز حيث بحثوا عن مأوى في أراضي الأمبراطورية التركية. وجد الجزء الأكبر من هؤلاء الشراكس في بادئ الأمر موطناً جديداً لهم في بلغاريا التي غادروها بعد ذلك بعد التحولات التي طرأت على الظروف في تركيا الأوروبية بعد الحرب الروسية التركية الأخيرة باحثين عن مأوى في المناطق الآسيوية. فأعطى الباب العالي هؤلاء القادمين الجدد أراض تعين عليهم غالباً الدفاع عنها في معارك شديدة ضد السكان المقيمين وتعرضوا فيها في بعض الأحيان إلى الإبادة الكاملة. وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء الشركس الذين لا وطن لهم كانوا يسعون دوماً=



يوليو/ تموز 1894م بعزل والي دمشق رؤوف باشا وتعيين عثمان باشا الذي كان في السابق والياً على دمشق وأخيراً على حلب. نجح عثمان في تحقيق السلام بين الشركس والدروز في الحرمون. ولكن في حوران كان النظام الآن قد تخلخل تماماً. إذ اتحد الدروز مع جماعات من البدو وشكلوا معاً عصابات للسلب والنهب سمّت نفسها «كسّارة» وزحفت على السهل، ويقال بأن مسيحيين ومسلمين مستقرين انضموا إليها أيضاً. وكانت جماعات درزية أخرى سمّت نفسها «زغابة»، ومقرها الرئيسي في صلخد، قد وضعت لنفسها، حسب زعمها، هدفاً وحيداً هو محاربة الظلم ومساعدة المظلومين. فانتعشت بين الشعب الدرزي الخلافات والانقسامات القديمة وسادت الفوضى في كل مكان، ولم يبق أي نفوذ لأحد إلا للشيخين الدينيين حسن الهجري في قنوات وحسين طربيه في السويدا.

= إلى التقرب من الحكومة التي كانت تستخدم الشركس في كثير من الأماكن كرجال أمن (جندرمة) وموظفين، وخاصة في سورية (دمشق، تدمر) وفي بعض مناطق بلاد الرافدين. وكان الشراكسة قد لعبوا منذ مئات السنين أدواراً معينة في بعض البلدان الإسلامية. وكان هؤلاء أحفاد الشراكسة الذين نشأوا وتربّوا في قصور وبيوت العائلات الوجيهة وكان بعضهم من الشركس المسلمين الأحرار وبعضهم الآخر من الشركس الذين تمّ بيعهم في سوق النخاسة وكانوا مسيحيين في الأصل، وبعضهم من أهالي البنات الشركسيات اللواتي أصبحن جواري في بيوت الأكابر. بخصوص سلاطين المماليك من الشركس. انظر من البحر المتوسط إلى الخليج: ص52، الملاحظة 3.



أما السبب المباشر للتدخل المسلح الحكومي الجديد ولنشوب أشد المعارك دموية في تاريخ حوران الحديث فكان هجوماً وقع في عام 1895م على قريتي كحيل والحراك في النقرة. وأما سبب الهجوم فهو أن تاجراً دمشقياً اسمه عثمان النوري كان له دين على بعض أهالي قرية كحيل المسلمين لم يستطع تحصيله، فلجأ إلى الزغابة لكي يحصل على ماله بمساعدتهم. وافق الزغابة على تقديم المساعدة وهجموا في آخر خريف 1895م على قرية كحيل ونهبوا مواشيها. على إثر ذلك هجم سكان قرية كحيل والقرية المجاورة الحراك على قافلة درزية فنهبوها وقتلوا عدة أشخاص من مرافقيها. وعندما وصل الخبر إلى حوران زحف الدروز الغاضبون على السهل وحاصروا حصن الحراك الذي كان قد تمَّ تحويله إلى جامع كان مسلمو القريتين المذكورتين قد فروا إليه خوفاً من الدروز. خلال الحصار قتل من الدروز 22 رجلاً، إلا أن المسلمين اضطروا إلى الاستسلام وطلبوا السلام؛ فوُهبت لهم حياتهم لكن جامع الحراك تمَّ تدميره. وكان متصرف منطقة حوران آنذاك، الكردي بدري بك، قد حضر إلى الموقع مع بعض رجاله لكي يعيد حالة السلام لكنه هوجم من قبل الدروز الذين يحاصرون الحراك واضطر إلى الانسحاب إلى الشيخ سعد بعد أن قتل حصانه من تحته بنيران الدروز.

أثار تدمير جامع الحراك غضب المسلمين ليس فقط في سهل



حوران بل وفي جميع أنحاء سورية واستياءهم الشديد من الدروز. في ذلك الوقت كان الهيجان شديداً جداً نتيجة الاضطرابات الأرمنية. واعتقد الباب العالي أن الاضطرابات الدرزية الأخيرة يقف وراءها أيضاً النفوذ الإنجليزي[1]، ولذلك قرر، لكي لا يسمح بأن تنشأ إلى جانب القضية الأرمنية «قضية درزية»، إخضاع دروز حوران فوراً وبكل قوة وفرض السيطرة الكاملة على جبل الدروز بنفس الطريقة المطبقة في المناطق الإسلامية من سورية. حاول الدروز معالجة النزاع في بادئ الأمر بطريقة التسويف والمماطلة وطلبوا تشكيل لجنة مختلطة من الدروز والمسلمين للتحقيق في حادثة الحراك ومعاقبة المذنبين من الجانبين؛ وعرض شبلي الأطرش نفسه للمشاركة في اللجنة ثم حمّل الكسارة، الذين كان يريد التخلص منهم، المسؤولية عن الاضطرابات الأخيرة. لكن الحكومة التركية لم تقبل، وإنما أرسلت أدهم باشا على رأس قوة كبيرة إلى الجبل تمركزت في بصر الحريري. عندئذ أعرب الدروز عن استعدادهم للخضوع، وفُرضت عليهم إثر ذلك الشروط التالية: عليهم دفع تعويضات لمسلمي حوران عما لحق بهم من خسائر، وعليهم أداء الخدمة العسكرية ودفع الضرائب وتسديد

---

(1) في الحقيقة كان الدروز بعيدين كل البعد عن السياسة العالمية، ويعتقد بأن ثورة حوران تعود لأسباب محلية فقط



المتخلف منها، والتقيد بصورة عامة بجميع القوانين والتعليمات النافذة في المناطق الإسلامية البحتة.

بينما كانت هذه المفاوضات جارية قام دروز قراته بقطع الماء عن القوات المتمركزة في بصر الحريري. وبذلك أصبح لا مفر من المعركة. أرسلت في بادئ الأمر وحدات صغيرة، وفي وقت لاحق وحدات أكبر، إلى قراته وبدأت معركة استمرت ثلاثة أيام وامتدت حتى نجران دون أن تصل إلى نتيجة حاسمة. وشارك في القتال من الجانب التركي 15,000 ـ 16,000 رجل. نصح قادة الدروز بالعودة إلى السلام، وبالفعل وافقت تركيا وأصدرت مرة أخرى عفواً عاماً (أمان)[1] إلا أن جزءاً من شيوخ الدروز، المنتمين لحزب الشعب، رفضوا الرضوخ وانسحب الرجل العنيد أبو طالب عمرو مع أنصاره إلى الحرّة. فأمرت القوات التركية بالتقدم إلى السويداء. لكن أدهم باشا لم يفعل في بادئ الأمر أي شيء، ولذلك استبدل بعد وقت قصير بعمر رستم الذي قام بعد ذلك بنزهة عسكرية في حوران كلها.

اعتقد شبلي الأطرش أنه يستطيع استغلال الوجود العسكري التركي لأغراضه. وقد يكون انطلق من الافتراض أن الظروف الاقطاعية القديمة ستعود إلى حوران في المدى المنظور، ولذلك

---

(1) استولى الدروز خلال المعركة على مدفعين مع بعض الذخيرة وعلى عدد من البنادق تعين عليهم فيما بعد إعادتها.



رأى أنه من الأفضل له أن يتخلى عن موقفه السابق المؤيد لحزب الفلاحين ويتولى رئاسة حزب الشيوخ على أمل أن يحصل عما قريب على منصب قائمقام حوران ثم يستغل هذا المنصب لتحويل الضرائب التي يدفعها سكان الجبل إلى جيبه. وبناء على إخبارية (فسديّة) منه تمَّ اعتقال عدد كبير من أنصاره السابقين. وأعلن عمر رستم أن جميع الدروز الذين يأتون إلى السويداء ويعلنون الطاعة سيعفون من العقاب. لكنه لم يف بهذا الوعد. ثم جاء أبو طالب عمرو لكي يدعي على شبلي الأطرش بأنه هو الذي أرسل الدروز للهجوم على الحراك وكحيل، لكن الأتراك ألقوا القبض على الاثنين، شبلي الأطرش وأبو طالب عمرو. وأرسلا مع عدد كبير من وجهاء الدروز، من بينهم جميع آل الأطرش تقريباً وسليمان خالد والشيخ حسن الهجري، إلى قلعة دمشق. وعند دخولهم إلى المدينة قوبلوا بكثير من الشتائم من أهالي دمشق المستائين من أفعالهم. وأرسل رستم باشا مئات المجندين الدروز إلى جزيرة كريت لكن معظمهم فروا من الخدمة. بعد وقت قصير نُقل شبلي إلى الأناضول عن طريق بيروت بسبب الاشتباه بأنه يشارك في تحريض الدروز ضد الحكومة من داخل السجن. ثم صدر أمر بنزع أسلحة دروز حوران، لكن كثيراً منهم طمروا بنادقهم وتخلصوا بهذه الطريقة من تسليمها.

في هذه الأثناء كان قد تمَّ في كل مكان تعيين مدراء أتراك



وشركس بدلاً من الشيوخ الدروز السابقين؛ فقط إبراهيم القضماني ومحمد نصار بقيا في منصبهما، الأول في شهبا والثاني في سالي. وأعيدت جميع القوات التركية باستثناء ست كتائب بقيت بقيادة ممدوح باشا في السويداء وبصر الحريري؛ وأرسل حوالي 100 عسكري إلى بصرى إسكي شام، وهُدمت قلعة المزرعة ولهذا الغرض جُلب إلى حوران عدد كبير من السبئية الأكراد الذين ساهمت تصرفاتهم وتطاولاتهم في انفجار غضب الشعب الذي كان راقداً تحت الرماد. كان هؤلاء الرجال يسخرون من عاداتهم الدينية ويزعجونهم أثناء أدائهم شعائرهم. ونظراً لاتساع سلطة الحكومة بشكل غير عادي، حاول بعض الأفراد التكيف ظاهرياً مع شعائر الدين الإسلامي. فبنوا جامعاً صغيراً في السويدا، ولكن عندما كان يذهب درزي إلى الصلاة كان يوصف بأنه منافق. ومما كان يؤلم جداً الدروز، الحساسين جداً تجاه قضية الشرف النسائي، أن بناتهم كن يؤخذن كجواري إلى حريم الأتراك والعرب. ثم أضيف إلى كل هذه الإهانات أن بدو الجبال الحورانيين، الذين كانوا في السابق خداماً ورعاة للدروز، تمردوا على سادتهم السابقين بطريقة في غاية الوقاحة.

ولذلك كانت الظروف مهيأة لاشتعال لهيب الثورة من جديد. وعندما وقع حادثان سيئان كانت الأمة بكاملها مصممة إلى أقصى الحدود على خوض المعركة. وقع الحادث الأول في



القنوات حيث اصطدم بدو الجبال مع الدروز فأرسل القائد العسكري في السويداء جماعة من الخيالة لتسوية النزاع. ولكن بدلاً من إلقاء القبض على الدروز المتهمين، حاول الجنود الأتراك اعتقال جميع وجهاء القرية. وعندما أبدى الدروز مقاومة أرسل من السويداء مائة خيال آخر وطُلب منهم حرق القرية بكاملها إذا اقتضى الأمر. وبالفعل فقد تمَّ حرق خمسة بيوت وجلب وجهاء القنوات إلى السويداء. أما الحادث الثاني فقد كان دامياً. قام درزي من عمران بإطلاق النار على بدوي جبلي.

على إثر ذلك أُرسل البمباشي التركي عبد الله أفندي مع 30 شرطياً كردياً، ومعهم رجل درزي كان برتبة ضابط في خدمة الأتراك[1] وابنه، إلى عمران. نزل رجال السبئية والرجلان الدرزيان عند الشيخ أبو خير الذي استقبلهم بكرم الضيافة المعهود. وفي أثناء تناول الطعام طلب الضابط الدرزي من مضيفه وبطريقة فظة إعلامه عن مكان وجود الدرزي الذي أطلق النار. وعندما جاء الرد رافضاً، سحب مسدسه وأطلق النار على أبو خير فأرداه قتيلاً؛ وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الفعل ذبح الجاني وأفراد السبئية الكردية المرافقة له. وعندما سمع الخبر مدير المنطقة جنبلاط بك، الشركسي، الذي كان مقره في ملح

(1) اليوم أيضاً لم يزل العديد من أبناء شيوخ الدروز يخدمون كضباط أتراك في دمشق.



جاء إلى المكان مع سبعة خيالة لكنه قتل أيضاً مع رجاله. نجا من الموت رجل واحد ونقل الخبر إلى السويداء. في السويداء كانت الآراء مختلفة حول الخطوات الواجب اتخاذها. في نهاية المطاف قرروا تأديب الدروز في عمران على الفور وليس، كما اقترح الفريق الآخر، القيام أولاً بحشد قوة عسكرية أكبر في السويداء.

وهكذا توجهت كتيبتان، حوالي 800 رجل، مع مدفعين إلى عمران. إلا أن الدروز كانوا مستعدين وهجموا على القوات التركية عند عيون قرب صلخد، ودارت معركة استمرت ست ساعات انتهت بإبادة الجزء الأكبر من القوات الحكومية بينما فقد الدروز 110 قتلى. أما محمد آغا من جيرود، الذي كان قد أرسل في الوقت نفسه إلى عمران مع فصيلة صغيرة من الخيالة البدو غير النظاميين، فقد وصل متأخراً وطلب منه الدروز الانسحاب لأنهم يعتبرونه من أصدقائهم. ففضّل محمد آغا تجنب السويداء واختفى في البادية. بعد ذلك زحف الدروز على السويداء وحاصروا القلعة الواقعة على مرتفع على بعد كيلو متر واحد تقريباً إلى الغرب من المدينة والتي كان لم يزل فيها كتيبتان من الجنود بالإضافة إلى نساء الضباط والموظفين الأتراك الكبار، أي ما مجموعه حوالي 1000 شخص. سكان السويداء المسلمون هربوا إلى السهل، ونساء الدروز غادرن المدينة مع



أمتعتهن وتوجهن إلى قنوات. بعد ذلك بدأ الدروز، الذين كان شيوخهم قد تجمعوا قبل ذلك في قنوات، بقصف قلعة السويداء بمدفع كانوا قد استولوا عليه في معركة عيون، وتولى مهمة استعمال المدفع أحد الأسرى الأكراد. ولكن بعد أن تدمر جزء كبير من شرفة الثكنة وارتفعت ولولة النساء المحاصرات في القلعة أوقف القصف بناء على نصيحة محمد نصار، كما أن شيوخ الدروز الآخرين تولدت لديهم القناعة بعدم تصعيد العداء إلى أقصى الحدود. وعندما حاول المحاصرون قطع الماء عن القلعة أفشل العملية قسم من الدروز المقيمين في السويداء، وهي خدمة لم تنسها لهم الحكومة فيما بعد.

في هذه الأثناء كانت أخبار الأحداث في جبل حوران قد وصلت إلى دمشق وأثارت هناك غضباً شديداً. فقررت الحكومة المركزية في القسطنطينية القضاء على الثورة الجديدة بجميع الوسائل. ولهذا الغرض عزلت والي دمشق عثمان نوري باشا وعينت مكانه حج حسن باشا الذي كان يتمتع بسمعة جيدة لدى الباب العالي بسبب إدارته الناجحة لولاية بغداد. وحتى وصوله إلى دمشق تولى محافظ بيروت نصوحي بك إدارة الأمور بصفة مؤقتة. وفي الوقت نفسه عزل قائد الجيش الخامس عمر رشدي باشا وعيّن مكانه المشير طاهر باشا. ومن جميع الأنحاء أرسلت قوات نظامية إلى دمشق واستدعيت إلى التجنيد الإجباري عدة



قرعات في سورية. وكان القلق في دمشق كبيراً جداً وخاصة لأن الناس كانوا يخشون أن يهب الدروز اللبنانيون لنجدة إخوانهم في حوران[1]. فضلاً عن ذلك لم يكونوا يثقون بالقبائل البدوية الكبيرة التي كان جزء منها موجوداً في البادية السورية في مواقع غير بعيدة عن دمشق ـ ولكن على غير وجه حق: إذ إن البدو وقفوا على الفور إلى جانب الحكومة وخاصة شيخ الرولة سطّام ابن شعلان الذي شارك في القتال ضد الدروز وقدم للأتراك الجمال لنقل المستلزمات والمؤن العسكرية من الشيخ مسكين إلى السويداء. فالعنزة، الذين يتمي إليهم الرولة، يعتبرون الدروز من ألد أعدائهم لأنهم وضعوا حداً لأعمال السلب والنهب التي كانوا يقومون بها ولأنهم، أي الدروز، شملوا بحمايتهم البدو الجبليين في حوران واللجاة والرحبة بحيث أصبحت هذه القبائل الصغيرة تتجرأ على شن غزوات ضد جيرانها من القبائل الأخرى الأكبر جداً والأقوى. هؤلاء البدو الجبليون فقط بقوا أثناء الأحداث الأخيرة أيضاً مخلصين للدروز[2].

في أول يوليو/ تموز 1896م زحف طاهر باشا على رأس

(1) يعود الفضل في عدم حدوث هذا التعاون إلى حاكم لبنان نعوم باشا وإلى الأمير مصطفى أرسلان.

(2) بلغت الحركة ذروتها في دمشق عندما قام الشيخ إسماعيل الهزل من صلخد، في يوليو/ تموز أثناء الزحف العسكري على حوران، مع حوالي 400 درزي بالاستيلاء، على مقربة من غباغب قرب قرية حبّة=



جيش قوامه 30,000 رجل تقريباً من الشيخ مسكين، التي نقلت القوات إليها بواسطة القطار، باتجاه حوران. في اليوم الأول وصلت القوات إلى دارا الواقعة في مكان غير بعيد إلى الشرق من الحراك، وفي اليوم الثاني نصب المعسكر على المرتفع الواقع قرب تل حديد، وفي اليوم الثالث بدأت المعارك. القوات التي نزلت من تل حديد نحو الأسفل ثم صعدت على السفوح الحادة لجبل حوران نحو السويداء، الأمر الذي أثار الدهشة والهلع لدى الحامية الحكومية الموجودة هناك، تعرضت لإطلاق نار متواصل من قبل العدو. فقد كان لدى الدروز، على الرغم من جمع الأسلحة الذي أمر به أدهم باشا، عدد كبير من البنادق الجيدة؛ إذ كانوا قد أضافوا إلى البنادق التي خبأوها بنادق أخرى اشتروها من تجار بيروتيين ودمشقيين، بالإضافة إلى ما كانوا قد استولوا عليه من أسلحة أخرى في معركة عيون المشؤومة. يقدر

= على بعد 8 ساعات تقريباً من دمشق، على قافلة مؤلفة من 500 حيوان محملة بالحبوب متوجهة من سهل حوران إلى دمشق. طلب جزء من سكان دمشق المسلمين من الحكومة تزويدهم بالسلاح، الأمر الذي رفضه نصوحي بك مبرهناً على حكمته. ولكن خلال الليل تجمع كثير من الناس عند أبواب المدينة. فخاف المسيحيون بشكل خاص على أرواحهم وأملاكهم. إلا أن عمر باشا، أكبر أبناء الأمير عبد القادر (الجزائري) الباقين في دمشق، لعب دوراً مشكوراً في تهدئة الخواطر. نتيجة لهذا الحادث أرسل طاهر باشا على الفور كتيبة و150 خيالاً إلى صبة للحراسة.



عدد الدروز الذين اشتركوا في معارك ذلك اليوم بـ6,000 ـ 7,000 رجل ألحقوا بالقوات التركية مئات القتلى والجرحى. لكن طاهر باشا تمكن في نفس اليوم من الاستيلاء على السويداء. وكانت حامية القلعة قد اخترقت الحصار وتوجهت نحو القوات التركية المتقدمة مما جعل الدروز يصبحون بين نارين. بعد هذه الهزيمة غادر الدروز جميع قرى حوران تقريباً. أما النساء والأشخاص غير القادرين على القتال فقد نقل جزء منهم إلى جبل قليب، إحدى أعلى النقاط في السلسلة الجبلية، وجزء آخر إلى الحرة واللجاة ليكونوا في مأمن. وكان محمد نصار مع أكثر من 1000 درزي قد انسحب إلى أصدقائه، الغياث، في جبل الصفا لأنه لم يكن يريد المشاركة في القتال ضد الحكومة.

بعد أسبوع انطلقت الفرقة الأولى من الجيش التركي بقيادة ممدوح باشا، ما مجموعه ثمان كتائب وستة مدافع ميدان، متوجهة إلى جبل قليب بينما بقيت الفرقة الثانية بقيادة آغيب باشا في السويداء. كان طاهر باشا يريد أسر النساء الدرزيات لكي يرغم بهذه الطريقة الرجال على الرضوخ. لكن الدروز الذين كانت كتلتهم الرئيسية قد تجمعت عند قنوات سارعوا أيضاً على الفور إلى تل قليب حيث دارت معركة عنيفة. هذه المرة أيضاً انتصر الأتراك نتيجة تفوقهم العددي الكبير، إلا أن الدروز



استطاعوا إنقاذ نسائهم اللواتي نقلت غالبيتهن إلى شهبا والبقية إلى اللجاة حيث وفر لهن الحماية بدو الصلوط الموجودون هناك. الآن توجه طاهر باشا وممدوح باشا إلى قنوات، التي كان الدروز قد غادروها، وأقاما معسكراتهما هناك. في الليلة التالية فاجأ الدروز بقيادة خليل عمرو الأتراك وقتلوا وجرحوا منهم أكثر من 100 رجل. وعند الصباح وجدت داخل المعسكر 40 جثة درزية. في هذه الأثناء كانت الذخيرة الموجودة لدى الجنود الأتراك قد نفدت بالكامل تقريباً لكن عمر بك القائد العسكري المخضرم السابق لمنطقة السويداء تمكن في اليوم التالي من الوصول بكتيبة واحدة فقط إلى السويداء ثم من تزويد القوات في قنوات بكميات جديدة من الذخيرة. بعدئذ تابعت القوات مسيرها إلى شهبا وقبل مسافة نصف ساعة من المدينة توقفت للمبيت في العراء. ومرة أخرى تجرأ الدروز على شن هجوم على المعسكر خلال الليل. وفي اليوم التالي سقطت شهبا في يد الأتراك على الرغم من المقاومة الشجاعة. وشارك في اقتحام المدينة الذي استغرق ثلاث ساعات ثمان كتائب نظامية وأربع كتائب رديفة. بلغت خسائر الدروز مئات الرجال، وانسحب الباقون الآن إلى القسم الداخلي من اللجاة.

قضى الجيش التركي الليل في شهبا، وفي اليوم التالي توجه إلى الزاوية الجنوبية الشرقية من اللجاة، وشقت الفرقة الأولى



طريقاً لها عبر الصخور البركانية المتفتتة في الهضبة البركانية حتى عاهرة. هناك عسكرت القوات على الرغم من أن الماء كان مقطوعاً عنها. ولكن في اليوم التالي قرر ممدوح باشا العودة عن طريق نجران إلى قراته في الطرف الجنوبي من اللجاة. استراح الجيش أربعة أيام في قراته؛ وكان الجنود منهكين جداً بسبب الحر ومشقات القتال، رغم ذلك تقدمت القوات مرة أخرى نحو اللجاة ونقل المعسكر إلى بصر الخريري. وهنا عرض الدروز أخيراً الاستسلام. في هذه الأثناء كانت أخبار المقاومة اليائسة للدروز قد وصلت إلى القسطنطينية وكانت قد تولدت هناك القناعة بأنه من الأفضل إيقاف المعارك. علاوة على ذلك فقد كان إنهاك القوات التركية والخسائر الكبيرة التي منيت بها، وخاصة الفرقة الأولى في المعارك الأخيرة، تؤيد إنهاء الحملة ودياً. طلب طاهر باشا تسليم جميع شيوخ الدروز وإعادة جميع الأسلحة بما فيها المدفعين اللذين تمَّ الاستيلاء عليهما في معركة عيون. فوافق الدروز على جميع الطلبات وبعد ذلك أعطاهم السلطان الأمان، فأمر طاهر باشا بإجراء مسح عسكري لمنطقة الجبل شاركت فيه ثمان كتائب وتم خلاله مصادرة جميع الأسلحة التي يتم العثور عليها. في بادئ الأمر جُمع جميع الشيوخ في السويداء وبعد ذلك أعيدوا إلى قراهم. ثم صدر أمر بإجراء تعداد سكاني عام بهدف تجنيد الدروز في الخدمة



العسكرية. وكان محمد نصار أيضاً قد عاد، بعد صدور الأمان السلطاني، من الصفا إلى حوران. إلا أن جزءاً غير قليل من الدروز بقوا، خوفاً من المحاسبة لاحقاً رغم صدور الأمان، في اللجاة أو تحت قيادة خليل عمرو في الرحبة وجبال الصفا الوعرة.

طلب الدروز تشكيل لجنة منهم ومن المسلمين لمناقشة القضايا الخلافية القائمة، فأرسل الباب العالي من القسطنطينية لجنة مؤلفة من المستشار القانوني حقي بك ورئيس القسم الجنائي في المحكمة العليا شوقي بك وموظف في (السراسكريات) اسمه مالك أفندي. وقبل وقت قصير من وصول اللجنة تمَّ استبدال طاهر باشا بالمشير عبد الله باشا الذي كان قبل ذلك بفترة قصيرة في جزيرة كريت. فور وصوله شن عبد الله باشا حملة عسكرية جديدة بقيادة ممدوح باشا ضد الدروز في الجبل واعتقل عدداً كبيراً من شيوخهم الذين تمَّ نفيهم، غالباً برفقة عائلاتهم، إلى الأناضول بصورة رئيسية. نحو 200 رجل من وجهاء الدروز أرسلوا إلى المنفى[1]، من بينهم أيضاً محمد نصار على الرغم من أنه كان قد قدم للحكومة دون شك بعض الخدمة. إضافة إلى ذلك أرسل مئات الدروز كمجندين إلى طرابلس إلا

---

(1) بهذه المناسبة أرسل إلى المنفى أيضاً الدروز الذين كانوا ما زالوا محتجزين في دمشق من أوقات سابقة.



أنهم لم يُسلّموا سلاحاً في بادئ الأمر بل وضعوا فقط في الصف كي يتعودوا على التربية العسكرية والنظام. كانت نتيجة هذا الإجراء أن عدداً كبيراً من العائلات الدرزية هربت مرة أخرى إلى اللجاة والحرة.

بعد وقت قصير جرى تجديد الأمان السلطاني مرة أخرى وغادر عبد الله باشا مع جنوده حوران. على إثر ذلك بدأ الدروز الهاربون يعودون شيئاً فشيئاً إلى أماكن سكناهم القديمة. بقي خليل عمرو في الحرة حتى اندلاع الحرب اليونانية التركية ولم يعد إلا بعد صدور عفو خاص عنه. عُيّن الشركسي جواد بك قائمقاماً على قضاء حوران وتم تخفيض عدد المديريات من ثمان إلى خمس، اثنتان منها فقط يديرهما رجل درزي وهما شهبا برئاسة حامد أطرش وسالي برئاسة سالم أبو أرسلان. ووضعت حاميات عسكرية في أماكن الحاميات السابقة: السويداء، وبصر الحريري، وبراق، والمسميّة[1]، وبصرى اسكي شام. أما ثكنة المزرعة فقد كانت قد دمرت، كما ذكرنا، ولم يُعد بناؤها لأنه لم يكن يوجد لديها ماء وكان الدفاع عنها صعباً. وأما السبئية فقد تمَّ تعيينهم من الأكراد.

منذئذ هدأت الأوضاع في حوران وأيضاً في منطقة الحرمون؛

---

(1) للأسف الشديد ضاعت البقايا الجميلة لمعبد المسمية بطمرها بالكامل تقريباً تحت الثكنة التي بنيت قبل بضعة أعوام.



فقد أدى تصرف عبد الله باشا العنيف ضد الدروز إلى تثبيط عزائمهم كلياً؛ إذ كانوا قد خسروا في المعارك الأخيرة نحو 1000 رجل بالإضافة إلى المنفيين والمسحوبين إلى الخدمة العسكرية. وساء وضعهم الاقتصادي جداً بسبب المعارك الطويلة؛ فقد فقدوا جميع مواشيهم تقريباً نتيجة أعمال السلب والنهب التي قام بها الشراكسة والبدو. إلا أن ما آلمهم بشكل خاص سلبهم قادتهم الدينيين والدنيويين. عندما عدت إلى دمشق في عام 1897م جاءت إليّ عدة وفود درزية من حوران ومن سفوح جبل الحرمون، من راشيّا وحاصبيّا ومجدل شمس. كانت إقامتي السابقة في حوران ما زالت في ذاكرتهم وكانوا يأملون في أنني كمواطن ألماني من رعايا صاحب الجلالة القيصر، الذي كانوا يعرفون علاقة الصداقة التي تربطه بالسلطان العثماني، يمكن أن أكون مفيداً لهم وخاصة فيما يتعلق بإعادة شيوخهم أو بعضهم على الأقل. كان منظراً جميلاً ومؤثراً عندما كانت صفوف الرجال ذوي اللّحى البيضاء مع أبنائهم يقفون أمامي بمنتهى الوقار والاحترام لكي يقدموا لي شكاواهم. وخاصة نفي محمد نصار لم يزل الدروز يعتبرونه غريباً وغير عادل.

فيما عدا ذلك يبدو أن دروز حوران بدأوا يتعايشون شيئاً فشيئاً مع الظروف الجديدة. ونظراً للخصوبة غير العادية لمنطقة الجبل يمكن أن يتحسن بسرعة وضعهم الاقتصادي. والسياسة التصالحية



التي يتبعها والي دمشق الحالي تجاههم تعطي، كما سمعت مؤخراً في سورية ومن جهات درزية أيضاً، ثمارها. فقد نُقل عبد الله باشا[1] من دمشق وعُيّن بدلاً منه حقي باشا. وتخلت الحكومة موقتاً عن خطة تجنيد الدروز في الخدمة العسكرية النظامية وأجلت ذلك إلى ما بعد تحسن واستقرار الأوضاع في حوران. وأنا أتوقع أن تنفيذ هذه الخطة سيؤدي إلى نشوب اضطرابات جديدة في حوران.

---

(1) عيّن قائداً للجيش السابع في اليمن وكلف بمهمة خاصة وهي قمع الثورة في جنوب شبه الجزيرة العربية.




مكتبة
الفكر الجديد

عبر جبال حوران
(جبل الدروز)

بصر الحريري. ـ المزرعة ـ السويداء. ـ إبراهيم باشا الأطرش. ـ مأدبة غداء عند الدروز ـ القنوات ـ عري ـ جمرّين ـ بصرى إسكي شام ـ صلخد ـ الشيخ محمد الأطرش ـ الطرق الرومانية ـ سالي ـ مدينة الأموات قرب سالي.

عند بصر الحريري وجدت مخيمي، كما ذكرت منصوباً عند قدم اللجاة المنحدرة هنا بشدة نحو السهل، بينما تقع القرية نفسها، وكذلك الثكنة التركية الموجودة هنا، في اللحف أي على طرف الهضبة البركانية. وعلى مسافة غير بعيدة من المخيم كان يوجد جسر حجري فوق وادي القنوات. الجزء الأصغر فقط من البيوت الحجرية القديمة في بصر الحريري مسكون في الوقت الحاضر، ومعظم السكان من المسلمين والباقي مسيحيون.



يذكر بوركهاردت[1] أن القرية في عام 1810م كان معظم سكانها من الدروز، بينما يؤكد باكينغهام[2] أنه لم يكن فيها عند مجيئه إليها في عام 1816م إلا المسلمون، وبالتحديد نحو مائة عائلة. كما أن غراهام[3] لم يجد في بصر الحريري عام 1859م إلا المسلمين الذين استقبلوه استقبالاً سيئاً وإن كان لم يكن بالسوء الذي قوبل به الرحالة بورتر[4] في اذرع الواقعة على بعد ساعات قليلة إلى الغرب. في الوقت الحاضر تسود في بصر الحريري ظروف منظمة تماماً بعد أن أصبحت البلدة مقراً للقائمقام الذي يوجد تحت تصرفه نصف طابور (كتيبة) من المشاة وفصيلة من الخيالة.

في بصر الحريري يوجد مقام الولي «الحريري» الذي سميت باسمه عدة قرى في المنطقة المجاورة. ويقال بأن النبي إليشاع مدفون هناك في جامع موجود إلى الغرب من الثكنة، بالقرب من طرف الهضبة البركانية، يحج إلى قبره في أيام معينة المسيحيون والمسلمون على حد سواء. والجامع هو عبارة عن بناء من زمن قديم مزود ببرجين لكل منهما قمة حديثة البناء ومطلي بالكلس

---

(1) جي. ل. بوركهاردت، رحلات في سورية والأراضي المقدسة، لندن 1822م، ص64.

(2) جي. س. بكننهام، رحلات وسط القبائل العربية المقيمة شرق سورية وفلسطين، لندن 1825م، ص265.

(3) انظر مجلة الجمعية الملكية الجغرافية، الجزء 28، ص260.

(4) جي. ل. بورتر، خمس سنوات في دمشق، لندن 1855م، الجزء الثاني، ص216 و230.



الأبيض بحيث يظهر كعلامة بارزة يشاهدها المرء من مسافة بعيدة في السهل.

هناك العديد من المباني المهدمة التي تعود إلى أيام الغساسنة وتشير إلى أنه كان يوجد هنا في يوم من الأيام تجمع سكاني كبير. ومما أثار اهتمامي بشكل خاص بناء واسع مزيّن بأعمدة وأقواس، يسمى «القصر»، يوجد على جداره الخارجي بالقرب من الباب كتابة كبيرة بالخط الإغريقي وكتابة عربية قصيرة بالخط الكوفي. بداية الكتابة الإغريقية (السطر الأول والحروف الأولى من السطر الثاني)، المؤلفة من 13,5 سطراً، تتطابق مع الأرقام 2472 في «كتابات وادينغتون الإغريقية واللاتينية»[1]. للأسف لم أسجل سوى البداية لأنني اعتقدت أن الكتابة قد درست قبلي من باحثين سابقين. ولكن وبما أنني لم أجدها حتى الآن في أي مكان أعرض هنا السطور التي سجلتها:

ZHCHOΔEΔOCOΛIΔΛCKΛOC
Z TYNBOCYΠOYOΛIΩNHAK
APΩNO ΔETΩENIKETAYCY
KΛHTOY NONO MA

---

(1) ف. هـ. وادينغتون، كتابات إغريقية ولاتينية في سورية، باريس 1870م. الكتابات ص562، النص، ص566. إلا أن الكتابة التي نسخها وادينغتون لم يعثر عليها في القصر وإنما في «الكنيسة الصغيرة».



أما الكتابة العربية فقراءتها صعبة، ويبدو أن العلامات تنص على ما يلي:

أمر بهذا المسجد الملك العالم

وتحتها يوجد عدد من الأسطر بخط ناعم جداً.

ومن نقطة مرتفعة قليلاً يشاهد المرء أمامه منظراً مؤثراً إلى أقصى الحدود. إلى الجنوب تقع المدينة الداكنة مع بيوتها المبنية من الحجارة البركانية والنارية وبطريقة مؤقتة بحيث إن جزءاً منها لم يزل مهدماً، وهي لا ترتفع عن الأرض إلا قليلاً؛ وفي جميع الجهات الأخرى تمتد إلى مسافة بعيدة اللجاة مع كتلها البركانية المتصلبة التي تبرز بينها هنا وهناك، كالنقاط الصفراء، بعض المساحات الخالية من الحجارة والتي تستخدم بعد موسم المطر لزراعة الشعير والذرة.

في اليوم التالي بدأنا مسيرنا إلى السويداء حيث قادتنا الطريق في الاتجاه الجنوبي الشرقي. إلى شمالنا أصبحت اللجاة والمدينة الأثرية القديمة نجران[1]؛ وإلى يسارنا كانت البقايا المتداعية لمدينتي قراصة وسجن وإلى يميننا لمدينتي دور وإصلحة ـ مدن رومانسية مقفرة تبدو كأعشاش النسور على قمم الجبال الصخرية. ولم أستطع التأكد مما إذا كانت هذه القرى مجرد

---

(1) قد يكون الاسم للتذكير بمدينة نجران قبل الإسلام وبقبيلة نجران في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية.



مواقع أثرية قديمة أم إنها أصبحت مسكونة اليوم من جديد.

في المزرعة وجدنا ثكنة عسكرية تركية واقعة على تل معزول بنيت بحجارة مأخوذة من أنقاض حصن قديم ورد ذكره عند بوركهاردت[1] ومن أنقاض قرية تعود إلى المرحلة السبئية المزدهرة في حوران. وإلى يسار الطريق كان يوجد بناء واسع على شكل مربع؛ وكان له، مثل غالبية الثكنات التركية، باب واحد متين ويحيط بباحة كبيرة في داخله، بينما كان لم يزل يوجد على اليمين الأساسات الظاهرة لبيوت قديمة منفردة وإلى جانبها حدائق صغيرة. ويقال بأنه كان يوجد هنا في الماضي نبع جيد قام بردمه، حسب الحكايات الشعبية تيمورلنك. وكما ذكرنا أعلاه تمَّ هدم الثكنة بعد الاضطرابات الأخيرة في حوران.

بعد المزرعة توجهنا في بادئ الأمر نحو الأسفل؛ وبعدما تجاوزنا من على يسارنا قرية ريمة ومن على يميننا قرية ولغة عاد الطريق إلى الصعود من جديد؛ على درب ضيقة تزداد وعورة وخشونة كلما تقدمنا نحو الأمام، تشبه مجرى مائياً صغيراً جافاً، صعدنا إلى جبل حوران الحقيقي. وإلى يسار الطريق كان يرتفع، في موقع شاعري على سفح الجبل، برج قوي مربع الشكل تابع لمدينة السويداء.

---

(1) بوركهاردت، نفس المرجع السابق، ص65.



سرنا فترة من الزمن بين أسوار منخفضة تحيط بأماكن لجمع الحبوب ثم التففنا حول بناء واقع إلى يمين الطريق مربع الشكل يبدو منيعاً كالطود ومحاط بأعمدة دورية (إغريقية قديمة) يسمى دبيسة بناه رجل اسمه أوديناتوس[1] (أذينة) هدية لزوجته. يحمل النصب على قاعدته بعض الوضعيات الصخرية التي تشير إلى بناء هرمي فوقها كذلك الذي نجده في الأبراج القبرية الأخرى في سورية، والبتراء، والخ... مررنا بعد ذلك قرب بركة كبيرة، وهي حوض كبير محفور في الأرض لتخزين الماء، تهدمت جدرانها إلى حد ما وأصبحت أقرب إلى البركة المستنقعية، وبعد ذلك وصلنا إلى الأسوار الضخمة للمدينة القديمة السويداء. استغرقت الطريق من بصر الحريري حتى هنا، بما في ذلك التوقف في المزرعة، نحو أربع ساعات ونصف.

حسب أبو الفداء قام ببناء قلعة السويداء الملك الغساني النعمان بن عمرو بن المنذر[2]، لكن المدينة يجب أن تكون أقدم من ذلك. فهناك كتابة لاتينية من عام 103م تفيد بأن نرفا

---

(1) انظر فوغويه، سورية المركزية، هندسة العمارة، ص29، اللوحة الأولى؛ فوغويه، كتابات سامية، ص89 وما بعدها. اسم أوديناتوس متكرر كثيراً في الأسرة الحاكمة في تدمر. كما أن زوج زنوبيا، آخر ملكة تدمرية، كان اسمه أوديناتوس (أذينة).

(2) أبو الفداء، تاريخ العرب قبل الإسلام، نقلاً عن هـ. و. فلايشر، لايبزيغ 1831م، ص120.



تراجانوس سيزار، ابن جرمانيكوس داسيكوس، قد بنى هنا قناة مائية ومباني أخرى[1]. ففي عهده، أي قبل بداية عهد بوسترنزيس (105م) وقبل ضم حوران بصورة مباشرة إلى الأمبراطورية الرومانية، يفترض أن السويداء كانت مدينة غنية بالسكان. بين الآثار الباقية[2] حتى اليوم تلفت الانتباه بشكل خاص أنقاض كنيسة كبيرة.

في بيت خاص في المدينة أطلعوني على نقش نافر في غاية الجمال يمثل الرأس الملتحي لرجل مكوّن بكامله من أوراق عنب متداخلة. وقيل لي إنهم عثروا على الرأس في مكان قريب من قنوات ـ حسب المعلومات التي ذكروها لي لا يمكن أن يكون إلا سبع. وقد قام مؤخراً كليرمون ـ غانّو بوصف نقش نافر بازلتي، عبارة عن كتلة صخرية طولها متران وعرضها 80 سنتيمتراً، يعتقد

(1) انظر ريترّ، نفس المصدر السابق، الجزء15، ص928.

(2) انظر بوركهاردت، نفس المصدر السابق، ص79 وما بعدها؛ غراهام، مجلة الجمعية الجغرافية، الجزء 24، ص258؛ بورتر، خمس سنوات في دمشق، لندن، الجزء الثاني، ص120 وما بعدها، ثم الطبعة الثانية (1870م)، ص219 وما بعدها؛ راي، رحلة في حوران (1857 و1858م)، ص144، 157 وما بعدها؛ زيتسن، ص76 وما بعدها؛فوغويه، هندسة العمارة، ص39، 60، الخ...؛ فوغويه، كتابات سامية، ص29، 92؛ وادينغتون، كتابات إغريقية ولاتينية في سورية، كتابات رقم 2303 ـ 2328؛ سوسان، نفس المرجع السابق، ص312.



بأنه كان عتبة علوية لباب. يظهر في النقش، الذي ينتمي إلى عصر سقوط الفن الإغريقي ـ الروماني، مقطع من صراع العملاق ضد الإله زيوس يفسره الباحث الفرنسي بأنه عرض للعملية التي يوقف فيها زيوس الشمس طالما يحارب هرقل ضد قوى الظلام. وحسب كليرمون ـ غامّو تعبر هيئة هرقل عن التأليه الميثولوجي للقيصر ماكسيميانوس (256م) الذي حصل على لقب «هرقل». وهناك رسومات بابلية وآشورية تعبر عن نفس الفكرة وهي: الصراع بين الضوء والظلمة؛ كما أن اللوحات التي تعرض القديس جرجس في صراعه مع التنين يعيدها كثيرون إلى الفكرة نفسها.

تتألف السويداء الحالية من حقل واسع جداً من الأنقاض؛ يخترقها شارع طويل ومستقيم إلى حد ما ينتهي ببوابة تشبه قوس النصر. والمدينة مبنية على شكل مصاطب على هضبة وعلى سفح جبل حوران؛ في الجزء الجنوبي الغربي المنخفض، على الطريق إلى عري، يوجد حي بيوته جديدة ومحاطة بحدائق صغيرة، بينما تتألف البيوت، فيما عدا ذلك من المباني المتبقية من الأزمنة القديمة بعد إصلاحها واستكمالها.

أصبحت السويداء بسبب موقعها المتميز مركزاً لمنطقة حوران واختارها الأتراك لتكون مقراً للحكومة المركزية لقضاء حوران. ومنذ أيام بورتر كان يقيم هنا أقوى شيوخ الدروز في منطقة حوران، وكان آنذاك (1853م) من عائلة حمدان. ويعيش فيها



أكبر تجمع للدروز في جنوب حوران، في أيامي كان يوجد هنا عدة مئات من العائلات الدرزية بينهم بعض المسيحيين. لا بل إننا رأينا في وسط المدينة في باحة أحد البيوت أفندياً يرتدي ثياباً أوروبية، طبيباً عسكرياً مسيحياً ولديه عيادة خاصة.

كان بيت قائمقام جبل الدروز المقيم في السويداء، إبراهيم باشا الأطرش، واقعاً في ساحة مكشوفة في الجزء الشمالي الشرقي من المدينة. وإلى القرب منه كانت لم تزل تنتصب بعض الأعمدة المزينة بالتيجان والمتبقية من معبد وثني قديم بُنيت بمواده القديمة صالة استقبال مفتوحة على الساحة المكشوفة، يطلق عليها اسم منزول. على درج حجري مكشوف يصعد المرء إلى الصالة التي يحمل سقفها القوسي عدد من الأعمدة. مثل هذه الصالات، التي يجدها المرء في جميع القرى الدرزية الكبيرة إلى حد ما في حوران، غالباً في المجمع السكني الخاص بالشيخ أو على مقربة منه، تستخدم لمبيت الضيوف ولإقامة الاستقبالات والحفلات العامة وغير ذلك من المناسبات.

نصبنا مخيمنا إلى جانب بيت القائمقام بعد أن دخلنا إلى المدينة عند البركة المذكورة أعلاه وشبه المهدمة ومررنا في عدة أزقة ضيقة وغالباً غير مسكونة. وعلى بعد عدة دقائق فوق مخيمنا كانت توجد بركة ماء أخرى حالتها أفضل جداً من السابقة تسمى «بركة الحج»، وهو اسم يشير إلى أن الحجاج المتوجهين إلى مكة



ظلوا فترة من الزمن يمرون من هنا أو إن حجاج حوران كانوا يتجمعون هنا. وكانت هناك بركة ثالثة ضخمة تقع في وسط المدينة ولها درج حجري ضيق يؤدي نحو الأسفل إلى موقع الماء وكانت تتحرك عليه على الدوام نساء يرتدين ثياباً ملونة ويحملن جراراً فخارية على رؤوسهن أو أكتافهن. وإلى جانب البركة كان يوجد في باحة مجمعٍ من المباني مهدّمٍ ومرممٍ جزئياً قبل زمن غير بعيد ومزود بحامية صغيرة، مذبح وثني مزيّن برؤوس.

كانت الثكنة، وهي مبنى جديد فخم وضخم، تقع على بعد عشر دقائق تقريباً فوق وشرقي المدينة. عند وصولي إلى هناك كان يوجد كتيبتان في السويداء. وكان القائد العسكري التركي تحت إمرة إبراهيم الأطرش الذي كان بدوره تابعاً لرئيس منطقة حوران بأسرها المتصرف الموجود في الشيخ سعد، وكان يوجد تحت إمرته سبعة مدراء.

كانوا آنذاك جميعهم دروزاً وكان بعضهم من أبناء عائلته. وكان المدراء السبعة من الدروز أيضاً. وكانت الحامية لا تغادر المدينة إلا للنزول إلى السهل، لكنها لم تكن تذهب إلى مسافة أبعد من الجبل. أما التدريبات والتمارين العسكرية فكانت تجري في ساحة الثكنة الواسعة أو في الساحة الواقعة أمامها.

عند وصولنا إلى السويداء استقبلنا أبناء إبراهيم باشا الأطرش الذين قدموا لنا واجبات الضيافة بمنتهى المودة واللطف. كان



أحدهم ضابطاً في الجيش التركي وكان قد حصل لتوه على إجازة من حاميته في دمشق. أما الباشا نفسه فكان مريضاً. صحيح أن الإشاعات عن موته، التي كنا قد سمعناها في الشيخ مسكين، لم تكن صحيحة، لكن الجرح الذي أصيب به نتيجة طلقة أصابته خلال معركة قصيرة مع أنصار أخيه شبلي، أجبره على البقاء في غرفته. ومن الممكن أن تكون وفاته بعد وقت قصير قد حدثت بسبب هذا الجرح[1]. خلال إقامتنا في السويداء والتي دامت بضعة أيام لم نره إلا مرتين. فقد استقبلنا في غرفته الواسعة الواقعة في الطابق الثاني والتي يؤدي إليها، كما في جميع البيوت الكبيرة في حوران، درج حجري مكشوف وكبير يصعد من فناء الدار إلى الأعلى. كانت الغرفة مغطاة بسقف حجري مسطح ومقسومة بواسطة أقواس ضخمة جداً إلى حجرتين. وكانت الأرض مغطاة بسجاجيد جميلة وببسط من الوبر مصنوعة في السويداء نفسها. في الجهة الغربية من الغرفة كان يوجد ديوان من الخشب الملون يمتد على طول الحائط تحت عدة نوافذ كبيرة. كان إبراهيم مستلقياً على فراشه في وسط الصالة. وعند دخولنا لم يستطع النهوض إلا بجهد كبير. وكانت القاعة بكاملها مليئة برجال شعثاء الشكل، ولكن في هيئة محترمة ملتحين ومرتدين عمائم بيضاء، نهضوا جميعاً مع الباشا صامتين ثم قرفصوا ثانية على الأرض في صفوف طويلة. أما أنا وسكرتيري العربي

---

(1) من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج، ج1، الفصل الرابع، ص193.



نجيب فقد دعينا للجلوس على الديوان. وفي الحديث تبادلنا أقصى عبارات المجاملة والأدب، الأمر الذي يحبه الدروز ويتميزون به. وقد ضمنت لي الرسالة الرسمية التي أحملها من المتصرف، ولكن أكثر منها الرسالة التي حصلت عليها في بيروت من الأمير مصطفى أرسلان، ضمنتا لي استقبالاً ممتازاً. ففي وقت لاحق أرسل السلطان رجاله معنا إلى القنوات ثم رافقونا عندما غادرنا السويداء عبر حوران كلها إلى صلخد وسالي.

بالفعل كان كرم الضيافة الذي لقيته من الدروز أثناء إقامتي في حوران صادقاً وحاراً وكبيراً إلى أبعد الحدود. ففي اليوم الأول من وصولي أقيمت لي مأدبة طعام شارك فيها وجهاء البلدة في قاعة الرجال الواقعة على مستوى الأرض في بيت الأطرش الحقيقي بينما جلس بقية المشاركين في المأدبة في قاعة الاستقبال الواقعة بشكل مائل مقابلها. كانت المدنية قد حققت في السويداء تقدماً واضحاً. فالطشت الذي يوضع فيه الطعام لم يكن موضوعاً هنا على الأرض العارية، كما هو الحال عادة عند الدروز والبدو، وإنما على كرسي صغير وضعت عليه صفيحة نحاسية ضخمة. وكانت القاعدة الخشبية بدورها موضوعة على حصير ملون جميل. كان الطشت وعاء مستديراً قطره نصف متر تقريباً ويحتوي على الأرز وقطع كبيرة من لحم الضان. وقد أضيف إلى الأرز بحضورنا كميات كبيرة من دهن الغنم السائل. وحول الطشت الموضوع في



الوسط كان هناك صحون صغيرة تحتوي على المقبلات: الدبس المصنوع من عصير الزبيب المطبوخ مع العسل، والحلاوة، واللبن المصنوع من حليب الماعز، والجبن المضاف إليه كثير من التوابل، ونوع من الكعك القاسي، طول القطعة حوالي 20 سنتيمتراً ثخينة في الوسط وتصبح أرفع كلما اتجهت نحو طرفيها، مصنوع من الخبز والحليب واللوز واللحم وجميع العناصر الممكنة الأخرى. هذا الكعك هو الأكلة المفضلة لدى الأطفال الذين رأيتهم في أحيان كثيرة يغادرون المائدة وفي يدهم قطعة منه. وعلى الحصير كانت كومات الخبز التي تحتوي على الخبز المستعمل عادة في المدن وهو أرغفة دائرية الشكل قطرها 20 ـ 30 سنتيمتراً وسماكتها 1 ـ 2 سنتيمتراً، وعلى الأرغفة الرقيقة جداً والتي يصل قطرها إلى نصف متر وتطوى إلى بعضها البعض وهي مغذية ولذيذة. حول المائدة كان يجلس على الأرض 10 ـ 15 شخصاً يتناولون الأرز بأيديهم ـ لم يكن يوجد ملاعق للمطبخ الدرزي ـ ثم يقذفونه عدة مرات نحو الأعلى حتى يتخذ شكلاً بيضوياً بحجم الكبة تقريباً التي يلقون بها بعد ذلك في فمهم[1]. ما يبقى بعد هذه

(1) يأكل الدروز كالعرب باليد اليمنى فقط، أما اليد اليسرى فتعتبر نجسة. وهناك عادة منتشرة في أوساط جميع الطبقات حتى الدنيا منها تقضي بغسل اليدين قبل الطعام وبعده وبتنظيف الفم. البدو وحدهم لا يتقيدون بهذه العادة بسبب شح الماء عندهم. أما الطريقة المحبوبة في المغرب وهي التجشؤ مراراً بعد الأكل تعبيراً للمضيف بأن الطعام كان شهياً فهي غير مألوفة في سورية وبلاد الرافدين.



الحركات الرشيقة يلقى به في الطشت المشترك. وإذا ما كانت قطع اللحم غير صغيرة بما فيه الكفاية تُشقف بيد شخص أو عدة أشخاص وتوضع بين حين وآخر قطع منها أمام الضيف أيضاً. أما الدبس واللبن فيؤكلان بقطع الخبز التي تُلفّ على شكل ملعقة، وأحياناً يشربان من الطاسة المشتركة مباشرة. إضافة إلى ذلك كان يقدم الماء عند الطلب في جراب من الجلد أو في إبريق من الفخار[1]. وكانت مثيرة للدهشة السرعة التي تناول بها رفاقي في المائدة طعامهم. وكلما انتهى واحد من طعامه كان يخلي مكانه فوراً لضيف آخر حتى وصل عدد الذين أكلوا من طشت واحد إلى 70 شخصاً تقريباً. أما أنا فكنت أعايش دفعتين أو ثلاث حتى أكمل طعامي لأنني لم أكن أستطيع مجاراتهم في سرعتهم، الأمر الذي كان ينال الرضى عند مضيفي.

ولّد لديَّ الدروز آنذاك انطباعاً بأنهم فلاحون مرتاحون وراضون عن حياتهم. العمل الزراعي في جبل حوران ليس سهلاً بأي حال ولكن مردوده جيد إلى حد كبير. كثيراً ما رأيت أن المحراث، من أجل حراثة بقعة صغيرة من الأرض، يدار حول مساحة صخرية أو يُحمل إلى الأعلى في السفح. والسطح الخارجي للأراضي الجبلية تظهر فيه كثير من الصخور الواقفة

(1) الماء هو المشروب المألوف في جميع الوجبات العادية لكنه لا يقدم للآكل إلا عند الطلب.



ويحتوي على تربة من الحمم البركانية المتفتتة ذات الخصوبة العالية بشكل غير مألوف، لكنها في كثير من الأحيان تجبر العامل الزراعي على جمع الصخور البركانية، غير المتحولة إلى تربة زراعية، واحداً واحداً. تستخدم هذه الحجارة عادة لبناء جدران تحيط بالحقول من جهة وتشكل أسواراً دفاعية للقرى ضد الاعتداءات الخارجية من جهة أخرى، تماماً كما هو الحال في أسوار البساتين الدمشقية التي تشكل من الناحية الاستراتيجية حماية لا يستهان بها. تصلح التربة الزراعية الداكنة في جبل حوران لزراعة جميع أنواع الحبوب ولأشجار الزيتون واللوز. ومن الواضح أن زراعة الكرمة كانت في السابق منتشرة في حوران على نطاق واسع، ويدل على ذلك استعمال العنب وأوراق الدالية في الزخارف السبئية ذات الصلة بإله الخمر العربي القديم دوسارا (دوسر) المقابل لديونيزس إله الخمر عند الرومان (باخوس عند الإغريق). أما اليوم فلم تعد الكرمة تزرع في جبل الدروز إلا في بعض المناطق القليلة ومنها صلخد. إلا أنني شاهدت في بصرى بعض شجيرات القطن، ولكن فقط في الحدائق المنزلية أو في الأوعية، ولم يعد السكان يتذكرون مصدرها. لا يوجد سوى قليل من الخيول والجمال والبقر في جبل حوران، ولكن بالمقابل هناك أعداد كبيرة من الماشية وخاصة الماعز.



قمت انطلاقاً من السويداء برحلة قصيرة إلى القنوات[1] الواقعة إلى الشمال في الجبل، وهي من أقدم قرى حوران وكثيراً ما تعتبر هي نفسها قرية قناة المذكورة في الإنجيل. مرت الطريق قرب تجمعات صغيرة غير كثيفة من أشجار البلوط وكانت بين حين وآخر توفر إطلالة رائعة على سهل حوران مع ما يتخلله من تلال وآثار مدنية بارزة وعلى أراضي اللجاة السوداء الموحشة، بينما تشمخ في الغرب البعيد، خلف النقرة، الجبال الفلسطينية الشمالية وجبل حرمون المهيب المغطى بالثلج. وقبل دخولنا إلى المدينة مررنا قرب بقايا معبد قديم من العصر الوثني، ما يسمى المعبد البريبتالي، لم يزل باق منه سبعة أعمدة مزينة بتيجان في غاية الروعة والأبهة.

يقطع القنوات عدة شوارع عريضة لم تزل في بعض المواقع مرصوفة بالحجارة القديمة. جزء صغير فقط من المدينة، التي كانت في يوم من الأيام بالغة الأهمية، مسكون الآن. شوارع

---

(1) انظر بوركهاردت، ص83 ـ 87؛ غراهام، ص258؛ داي، ص128 وما بعدها؛ زيتسن، ص78 وما بعدها؛ فوغويه، هندسة العمارة، الجزء الأول، ص59؛ وادينغتون، كتابات، ص533 حتى 539؛ بورتر، خمس سنوات في دمشق، الجزء الثاني، ص110 وما يليها. ثم شروحات ومصادر البروفسور غوته، والدكتور شتوبل، رحلة إلى ديرة التلول وحوران 1882م، مجلة جمعية فلسطين الألمانية، الجزء 12، لايبزيغ 1889م.



بكاملها مقفرة وإن كانت بيوتها من الخارج لا تظهر عليها آثار العمر الطويل الذي يزيد على ألفي عام. ولكن عندما يجتاز المرء العتبة يشاهد الدمار المخيف الذي سببته هنا أيضاً الهزات الأرضية المتكررة. وهناك طريق ضيق على سفح وادي القنوات يؤدي نحو الأعلى إلى القلعة المحصنة الواقعة في جنوب شرق المدينة والتي تحتوي على آثار في غاية الغرابة والروعة. فلم يزل باقياً هنا بوابات قوسية مزينة بأجمل الزخارف وأعمدة وجدران كاملة من معابد وقصور، بالإضافة إلى بقايا قوس نصر وبعض خزانات الماء المحفورة تحت الأرض. وفي الجزء الغربي من المدينة يشاهد المرء آثار كنيسة مسيحية. وعلى الضفة اليمنى من وادي القنوات، غير بعيد عن الساقية، يقع المسرح المكشوف الذي يرى الزوار من على مقاعده الصخرية الباقية حتى اليوم إطلالة رائعة على المدينة.
أما اليوم فإن هذا المكان الذي كان في الماضي مركزاً للآلهة محاط بأدغال متوحشة عمرها مئات السنين تحتفظ بفضل الماء الجاري بخضرة يانعة في الصيف تمتد على جانبي الجدول نحو الأعلى حتى بقايا إلهة ينبوع قديمة، ولا يوجد فيها من المواقع المستثمرة زراعياً أو لأغراض أخرى سوى بعض النقاط المتفرقة هنا وهناك. يعيش سكان القنوات الحاليون، وجميعهم من الدروز، في المباني القديمة في الجزء الجنوبي الغربي من المدينة، وعند وجودي هناك لم يكن يزيد عددهم على 30 إلى 40 عائلة.



كان شيخ القنوات، الذي استرحنا في منزوله الرطيب المحمول على أعمدة، أحد أبناء إبراهيم الأطرش، وكان أكبر الرجال جثة وأشدهم خشونة في أسلوب التعامل. وكان يعيش في القنوات أيضاً الشيخ حسن الهجري الذي وُصف لي بأنه أعلى رجال الدين الدروز مرتبة في حوران والذي كان متصرف الشيخ سعد قد أعطاني رسالة له. لكنني لم أقم بزيارته لأن الأطرش الشاب لم يكن كما بدا لي على علاقة طيبة معه. وفي أيام غراهام أيضاً، في أواخر الخمسينات، كان يسكن في القنوات «إمام الدروز الكبير» وأعلم رجل في البلاد.

يوم مغادرتي السويداء أقمت لأبناء الأطرش وجماعته في مخيمي مأدبة عشاء حضرها أيضاً القائد العسكري في السويداء البمباشي عمر بك ومرافقه الخاص؛ وأصر البمباشي عمر على دعوتي إلى الفطور في مسكنه الرسمي في الثكنة حيث أكلنا على الطريقة الفرنجية بالشوكة والسكين ولكن من طشت مشترك دون صحون ومع العديد من الضباط. وكانت الثكنة التي لها باب واحد يوجد أمامه حديقة صغيرة، وكذلك العسكر الموجودون فيها، تبدو في وضع جيد جداً. وكان عمر بك قد أدى للقوات التركية خدمات كبيرة خلال الاضطرابات الأخيرة في حوران بفضل معرفته الجيدة للمنطقة[1].

---

(1) من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج، ج1، الفصل الرابع، ص202.



في 4 يوليو/ تموز غادرنا السويداء وتابعنا سيرنا في خط مستقيم تقريباً نحو الجنوب الغربي. اتجهنا إلى الأسفل نحو السهل في طريق كانت في البداية شديدة الانحدار ثم اعتدلت شيئاً فشيئاً. في البدء سارت الطريق بموازاة طريق روماني قديم؛ وفي وقت لاحق استعملنا الطريق الروماني نفسه. بعد نصف ساعة وراء البلدة شاهدنا طاحونة ماء كبيرة تعود لإبراهيم باشا الأطرش ثم مررنا بعد ذلك قرب قرية المجيدل الواقعة إلى اليمين وعبرنا الساقيتين الجافتين كوم الحصى ووادي ثالث حتى وصلنا بعد مسيرة ساعتين إلى القرية الشاعرية الواقعة على ظهر هضبة صغيرة عري[1]. وقبل ذلك بمسافة قصيرة كانت توجد على يمين الطريق بناية كبيرة متداعية هي قشلة درارق التي قيل لنا بأنها ثكنة مهجورة. في عري كان يسكن في بناء بارز إلى مسافة بعيدة شبلي الأطرش، أخو إبراهيم الأطرش، الذي تكرر ذكره سابقاً. ولقد منعني من زيارته مرافقيّ من رجال إبراهيم الذين زعموا أنهم سعيدون من أن شبلي لم يهاجمنا. وعند متابعتنا السير تركنا على يسارنا أنقاض قرية المجيمر ثم أنقاض قرية أخرى قيل لي إنها دير زبير[2]. خلف قرية الخرابة، التي قيل إن جميع سكانها من المسيحيين، خرج الطريق من جبل حوران وبالتالي من منطقة الدروز. وبعد بصرى عدنا مرة أخرى إلى المناطق الجبلية.

---

(1) انظر بوركهاردت، نفس المصدر السابق، ص225.

(2) انظر بورتر، نفس المصدر السابق، الجزء الثاني، ص140.



بعد ساعتين تقريباً من السير السريع، اعتباراً من عري، وصلنا إلى المدينة الأثرية جمرين[1] الواقعة في السهل على ضفة جدول كان جافاً عند حضورنا لكنه في الشتاء يكون قوياً إلى حد ما ويوجد عليه على امتداد الطريق الرومانية جسر مؤلف من عدة أقواس. وعلى مسافة غير بعيدة عن الجسر يوجد على الجهة المواجهة للمدينة برج قوي رباعي الأضلاع مهدم تبدأ بالقرب منه آثار المدينة المحافظة على نفسها بشكل جيد. وتحت هذه الأنقاض يلفت الانتباه بشكل خاص مجمع من المباني يحتوي على العديد من الباحات والأجنحة. وفي أحد الأجنحة وجدنا في الطابق الأرضي والطابق الأول عدة غرف واقعة إلى جانب بعضها البعض لها سقوف قببية مزينة بأجمل الزينة وفي حالة جيدة جداً وكأنها قد هجرت للتو. يعود هذا البيت لمنصور القاسم الذي يعيش أفراد عائلته هنا مع قطعانهم الصغيرة إلى جانب عدد قليل من العائلات الإسلامية الأخرى في هذه المدينة غير الكبيرة التي كانت في يوم من الأيام مدينة غنية وفخمة. تتألف واجهة البيت من حجارة مربعة الشكل مقصوصة بمنتهى العناية، ونهايات جدرانها مزينة بأشكال متدرجة وجملونية. ومن فتحات النوافذ يلاحظ

---

(1) بوركهاردت يسميها «شمرّين» (نفس المصدر السابق، ص105)، ويسميها راي (نفس المصدر السابق، ص176) «جرمرّين»، ويسميها زيتسن (نفس المصدر السابق، ص65) «شمورّين»، وكلها تسميات خاطئة.



المرء من الخارج وجود عدة طوابق. يوجد في جمرين العديد من الكتابات الإغريقية؛ فعلى باب بيت منصور القاسم مكتوب بوضوح كامل الاسم OHAIKOC. وعلى حجر قرب الجسر رأيت كتابة عربية كبيرة بالخط الكوفي. كان الحجر ملقياً على الأرض بالقرب من البرج المذكور سابقاً وهو مأخوذ، حسب أقوال السكان، من الجسر الذي كما يبدو للعيان قد تمَّ تجديده في العصر العربي.

بعد مسير قصير وصلنا إلى بصرى إسكي شام (أي دمشق القديمة)، وهي دون أدنى شك أعظم مدينة أثرية في منطقة حوران. فمع أبراجها ومآذنها والبرج الضخم الذي يشهق عالياً فوق حقل الأنقاض جميعها تعطي المدينة انطباعاً في غاية العظمة والروعة؛ لكن منظر الدمار الرهيب الذي يراه الزائر كيفما توجه لا يقل تأثيراً ورهبة. فإلى جانب الدمار الذي خلفته الزلازل يلاحظ المرء أيضاً آثار الحروب الكثيرة التي شهدتها بصرى، الأمر الذي يبدو طبيعياً تماماً بسبب موقع المدينة عند أسفل الجبل وعلى بوابة الصحراء. يعيش في بصرى اليوم في الجزء الشرقي عدة مئات من الناس؛ وكان بوركهاردت قد وجد هناك أقل من 40 أسرة. يتألف السكان، إلى جانب عدد قليل من المسيحيين، من بدو أصبحوا مستقرين ومن فلاحين يعملون في الزراعة لكنهم ما زالوا متمسكين بعاداتهم القبلية القديمة وهي أنهم يذهبون إلى الحقل على ظهر



الحصان ومسلحين بالرمح. وفي لباسهم أيضاً يشبهون أبناء عمهم الذين ما زالوا يرحلون، وكانت علاقتهم مع الدروز سيئة.

دخلنا إلى المدينة من الجهة الشمالية الشرقية، وبعدما تجاوزنا المقبرة الممتدة على مسافة طويلة والتي تسطع منها القبة البيضاء لجامع المبرك، عبرنا حقل الأنقاض بكامله وقمنا بزيارة الشيخ ثم وجدنا أخيراً في الجنوب الشرقي من المدينة قرب نبع ماء جيد قافلتنا التي كانت في صدد نصب مخيم للقضاء هنا بضعة أيام.

تنقسم بصرى إلى قسمين: القسم الشرقي ويحتوي على الآثار الهامة، وهنا يعيش، كما ذكرنا أعلاه، السكان القلائل الذين بنوا بيوتهم في أنقاض المباني القديمة. أما القسم الغربي فلا يوجد فيه سوى القليل من المباني الأثرية الهامة؛ ربما كان هناك في الماضي المعسكر الروماني القديم. وهناك طريق لم يزل ظاهر بشكل واضح يقطع هذا القسم بكامل امتداده يتجه نحو غرب الشمال الغربي ويؤدي إلى «باب الهواء» أو «باب الغربي»، وهو صرح معماري جبار لم تزل أقواسه الدائرية المبنية فوق بعضها البعض محافظة على وضعها بشكل جيد حتى اليوم. من هذا الباب ينطلق طريق مرصوف قديم جداً ويخط مستقيم إلى درعاة التي ورد ذكرها في العهد القديم تحت اسم إدرعي. وفي القسم الشرقي أيضاً يوجد بعض الشوارع القديمة التي تثبت آثارها التنظيم العالي



المستوى للمخطط العمراني الأصلي. الشوارع صعبة المسلك، وإن كان السطح المرصوف القديم يظهر بين حين وآخر هنا وهناك، لكن الأنقاض طمرت الطريق عموماً وتراكمت فوقه في بعض المواقع عدة أمتار. وبصعوبة يتابع المرء الدرب الضيقة التي شقتها الأجيال اللاحقة فوق ركام الأنقاض.

في الحي الغربي من المدينة يوجد حوض مائي كبير لكنه جاف الآن كان يستعمل في العصور القديمة للتدرب على المعارك البحرية (الافتراضية). وفي مكان غير بعيد من هنا إلى الشمال يقع النبع الذي نصبنا مخيمنا جنبه. من الآثار الموجودة في الحي الشرقي من المدينة تجدر الإشارة بشكل خاص إلى جامعين: جامع عمر بن الخطاب (بناه الخليفة الثاني عمر 634 ـ 644م)، وجامع دير المسلم. كلا الجامعين لهما مئذنة رباعية الأضلاع وهذا دليل على أنهما يعودان إلى أقدم العصور الإسلامية[1]. من الجامع الأول لم يزل يوجد عدة صفوف من الأعمدة وجذوع الأعمدة التي كانت في يوم من الأيام تحمل السقف، والآن تحمل قاعات مهدمة. يتألف بعض الأعمدة من قطعة واحدة وبعضها الآخر من عدة قطع منحوتة من المرمر الأخضر والدوليريت ومزينة بتيجان من الرخام الأبيض منحوتة بالأسلوب الإغريقي القديم

(1) المآذن الحديثة في تركيا الآسيوية ومصر دائرية الشكل أو ثمانية الأضلاع، بينما هي في المغرب رباعية الأضلاع مما يدل على أن الإسلام في أقصى الغرب ظل محافظاً على أقدم صيغة له.



الكورينتي والإيوني. ولا شك في أن أجزاء المبنى مأخوذة من مبان أقدم؛ وتشير الزخارف ذات الصلبان إلى أنها كانت في الماضي موجودة في كنائس مسيحية. ومما يلفت الانتباه بشكل خاص بقايا إفريز حول أحد الحيطان مزخرف بكتابة بالخط الكوفي في الجبس. وعلى الجدار الخارجي للجامع، عند المدخل الرئيسي، مقابل بقايا غرفة أمامية، توجد عدة كتابات ذكر في إحداها الاسم عبد الرحمن المصري. وعلى الجانب الآخر من الشارع ترتفع أربعة أعمدة فخمة بالطراز الكورنتي. وإلى الغرب من جامع عمر توجد بناية كبيرة تفيد إحدى الكتابات المنقوشة عليها بأنها تعود للعصر الروماني وكانت دون أدنى شك حمّاماً فخماً.

أما جامع دير المسلم فلم يزل يستخدم حتى اليوم للأغراض الدينية؛ يسكن في المبنى حارس للمعبد، ومن غاليري المئذنة، المطلة على منظر رائع بعيد يمتد إلى النقرة وجبل حوران وحتى جبل صلخد، لم يزل يرفع الأذان حتى اليوم. وفي باحة دير المسلم كان يستند إلى الجدار نفس الحجر الذي توجد عليه الكتابة التي كان بوركهاردت[1] قد ذكرها وكان راي[2] قد نسخها. هناك

---

(1) نفس المصدر السابق، ص232. لكن بوركهاردت يذكر جزءاً صغيراً منها فقط.

(2) نفس المصدر السابق، ص179، 192.



الكثير من الكتابات العربية القديمة بالخط النسخي في بصرى، ومنها، مثلاً، كتابة على حجر فوق باب جامع صغير يقع قرب بركة موجودة خارج حقل الآثار الرئيسي، تفيد بأن الجامع قد بني في عام 655هـ (1257م)، وفيما يلي نصها:

لا إله	بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين	إلا الله
الله	بني هذا المسجد المبارك سنة خمس وخمسون وستماية	وحده
محمد	رحم الله من دعا لروحه بالرحمة	رسول الله

إلى الجنوب من المدينة تشمخ القلعة، صرح معماري ذو أبعاد هائلة محاط بخنادق عميقة يمكن تزويدها بالماء من بركة مجاورة. وهذه البركة هي بالتأكيد أكبر بركة في الشرق كله؛ حفرة مستطيلة الشكل يبلغ طول ضلعها حسب راي[1] أكثر من 216 متراً. مسقط القلعة على شكل متوازي أضلاع غير منتظم مبني على شكل نصف دائرة نحو الجنوب. وهناك جسر مؤلف من ست قناطر يؤدي من الشمال فوق خندق القلعة إلى باب المدخل الوحيد. الأسوار مبنية على شكل أسوار الحصون وتحمل كتابات عربية طويلة. أما القلعة نفسها فتتألف من عدة طوابق. الجزء الأسفل بكامله محصن بشكل منيع ويحتوي على متاهة من

(1) نفس المصدر السابق، ص186.



الممرات والحجرات تؤدي إليها ممرات نازلة إلى الأسفل. ويوجد في هذا الجزء جامع لا يحتوي في هيئته الحالية على أي شيء مهم؛ ولكن هناك آثار واضحة للكلس والطين على الجدران قد تخفي تحتها بعض الأشياء الثمينة. وفوق الباب نقشت كتابة دينية.

يحتل الجزء العلويَّ من القلعة، أي ما يمكن أن أسميه المنصة الأرضية، مسرح ضخم على شكل نصف دائرة لم تزل تزينه بعض الأعمدة الجميلة[1]. وعند المدخل اليميني إلى خشبة المسرح بنى الأيوبيون مخزناً كبيراً للأسلحة كتبت على مدخله القوسي العبارات التالية:

امر بعمارة هذه الزردخانة المباركة مولانا السلطان الملك الصالح

العادل عماد الدين أبو الفدا اسمعيل ابن الملك العادل أبي بكر بن

أيوب رحمه الله ابن الأمير بدر الدين داود ابركيز(؟) اللاه الصالحي

في شهور سنة تسع وعشرين وستماية

حسب هذه الكتابة قام بتشييد هذا المبنى سلطان دمشق الأيوبي الصالح إسماعيل ابن العادل في عام 629هـ (1231م/ 1232م). ويعتقد بأن هذه الكتابة ومعظم الكتابات العربية الأخرى الموجودة في القلعة تعود إلى العهد الأيوبي، وبالتحديد إلى القرن

---

(1) انظر فوغويه، هندسة العمارة، الجزء الأول، ص40.



الثالث عشر الميلادي. وعند زيارتي للقلعة، التي تتسع لإقامة عدد كبير من الجنود، لم يكن يوجد فيها سوى خمسين رجلاً تقريباً كان قائدهم يسكن في أحد الأبراج المتجانحة مع السور. وعلى مسافة قريبة جداً من القلعة يقع سوق بصرى الحالي المؤلف من عدد قليل من الدكاكين الفقيرة؛ ولم تزل آثار السوق القديم باقية حتى اليوم.

إلى العصر الروماني تعود الآثار الكثيرة لما يسمى «قصر طيران» (أي القصر الطائر)، الذي تقول الحكايات إن الجن جلبوه إلى هنا لكن اسمه يعود ربما إلى الأمبراطور الروماني ترايانس. في عهد الأمبراطور ترايانس حدث البناء الفعلي لمدينة بصرى. فقد أطلق اسم «نوفا ترايانا بوسترا» على المستعمرة الجديدة وعلى عاصمة مقاطعة «آرابيا»[1] المؤسسة حديثاً.

وهناك ثلاثة مبان تذكّر بـالنبي محمد وتحمل جميعها اسم الراهب «بحيرا» وهي: بيت وكنيسة ودير. عندما كان محمد عائداً في إحدى رحلاته من دمشق مر ببصرى وتعرف هنا على الراهب النسطوري بحيرا الذي تنبأ له بشأن عظيم.

الجزء الشرقي من المدينة محاط بكامله بمقبرة واسعة يبرز منها جامع المبرك المذكور سابقاً كصرح معماري فخم. ويعاد اسم المبرك («موضع البروك») إلى الخليفة عثمان الذي دعا إلى

---

(1) انظر مومزن، التاريخ الروماني، الجزء الخامس، الطبعة الرابعة، ص82 وما بعدها.



بناء جامع في المكان الذي برك فيه جمله أول وصوله. وفي عام 1854م دفن هنا الأمير محمد ابن الخديوي عباس الأول حاكم مصر. وتكريماً له أمر الخديوي سعيد باشا بإعادة بناء قبة الجامع التي دمرها الوهابيون[1]. وكان الأمير الصغير محمد قد أرسل في الثالثة من عمره إلى الرولة، وهم فخذ من قبيلة عنزة، لتربيته ولكي يتعلم عندهم ركوب الخيل وفنون الحرب والقدرة على تحمل مشاق الحياة. وعندما زرت في وقت لاحق الخديوي عباس الثاني في القاهرة وحدثته عن زيارتي لبصرى قال لي إن الأمير محمد لم يكن الوحيد من أقربائه الذي تدرب عند البدو. بل إن إحدى أميرات أسرته كانت أيضاً ابنة شيخ بدوي؛ وكانت أحياناً تنصب خيمة على سطح القصر لكي تتذكر الأوقات التي قضتها مع قبيلتها في الصحراء.

لم تزل بصرى حتى اليوم مدينة ذات أهمية استراتيجية وقد ازدادت أهميتها ببناء الخط الحديدي إلى مزيريب مما أدى بالتالي إلى ازدياد أهمية السوق السنوية في مزيريب التي يتعين على بصرى حمايتها من هجمات بدو الحماد. ومزيريب، التي هي أيضاً محطة

---

(1) كتب على القبر مقطعان من الشعر العربي ترجمهما فتسشتاين (نفس المصدر السابق، ص72) على الشكل التالي:

لقد حان اليوم الذي وصلت فيه كضيف إلى مملكة الله الغنية، والضيوف يستقبلون في كل مكان من قبل المضيف بكل المودة والاحترام. إذا ما كان الدخول إلى حصن الملك يؤدي إلى الحصول على المغفرة فكيف لا يطمع بالمغفرة من يدخل إلى بيت الرحمن الرحيم؟



رئيسية للحجاج، يأتي إليها الناس في أيام السوق من جميع أنحاء حوران ومن الحماد الجنوبي ومن بغداد وحتى من نجد لشراء الخيول والمواشي وتسويق الأشياء المسروقة أيضاً بمقايضتها بأسلحة ومشمعات الخيام وحصر وأقمشة ومتوجات من الغرب.

انطلقنا من بصرى نحو الشرق لكي نسافر على الطريق الرومانية القديمة إلى صلخد. وبعدما اجتزنا مدينة أثرية كبيرة واقعة على يمين الطريق اسمها برد، عبرنا طريقاً قادماً من الجنوب ومتجهاً نحو الشمال إلى المدينة الدرزية الهامة القريّة ثم رأينا بعد ذلك قرية المنيطرة التي لم تزل خالية من السكان. اعتباراً من هنا بدأت الطريق الرومانية تصعد بشدة وبخط مستقيم إلى صلخد التي كنت قد رأيت قصرها الجبلي من مأذنة جامع دير المسلم في بصرى. ومن الطريق كنا نرى في جهة الشمال القليب[1]، البركان الرئيسي في حوران.

لقينا في صلخد استقبالاً حاراً إلى أبعد الحدود. استقبلنا الشيخ محمد الأطرش، أخو إبراهيم، وهو مثله رجل ذو هيئة

(1) إذا ما كان بورتون (نفس المصدر السابق، ص169) يعتقد أن بورتر كان أول من كتب الاسم «جبل قليب» بشكل صحيح، بينما كان يسمى حتى ذاك الحين «جبل كلب»، فإنه كان مخطئاً في ذلك. إذ إن فتشتاين (نفس المصدر، ص28) كان قد رفض صراحة التسمية كلب، لا بل سيتزن (نفس المصدر، الجزء الأول، ص104) استعمل التسمية «تشليب الحوران» إلى جانب «القلب».



وقورة ولحية بيضاء، وأخذنا على الفور من غرفة الاستقبال الرسمية إلى القسم الداخلي من البيت حيث تناولنا معه الطعام. وبعد الطعام أطلعنا على منزله حتى أدق أجزائه وقدم لنا زوجته الشابة الجميلة والأبية أم ابنه المدلل والبالغ من العمر سبعة أعوام. كانت قاعة الاستقبال موجودة داخل باحة، وعبر باب ثان يصل المرء إلى الباحة الداخلية المرصوفة بشكل جميل والتي تقع فيها المباني السكنية المؤلفة من عدة طوابق. وكان محمد قد كلف قبل وقت قصير فناناً دمشقياً بتجهيز عدة غرف بمقاعد خشبية محفورة وبطلاء الجدران بالكلس الأبيض وتزيينها ببعض الألوان الخفيفة المتفرقة.

صلخد مبنية على السفح الجنوبي الغربي لتل البرج؛ وتحت المدينة غير الواسعة يقع خزان الماء الضخم والمسوّر. أحواض كبيرة من الحجر تستعمل كمشارب للحيوانات. كانت مياه البركة (الخزان) ملونة بلون قاتم وذات طعم قطراني سيئ. في كثير من البيوت يوجد منذ قديم الزمان آبار اصطناعية لكن مياهها أسوأ من مياه البركة. فقط الشيخ يجلبون له كل يوم حاجته من الماء من البركة الواقعة على بعد عدة كيلومترات شمالاً في موقع يسمى عيون أي الينابيع.

بني برج صلخد على قمة مخروط بركاني حاد الانحدار؛ وفي وسط القلعة المستديرة توجد بركة قديمة عميقة أحيطت بسور على



قاعدة الفوهة البركانية. عبر جسر عال مبني على قناطر يصل المرء إلى باب المدخل الذي لم تزل تظهر عليه حتى اليوم صور عقبان رومانية. بعد ذلك يؤدي ممر على شكل نفق إلى داخل القلعة التي رصفت ساحاتها غالباً بأحجار كبيرة ملساء مربعة الشكل. ولم تزل معالم كثير من الممرات والغرف واضحة تماماً؛ وأيضاً العديد من أحواض الماء الصغيرة. يبدو المنظر من قمة الأنقاض رائعاً؛ فالواقف هناك يشاهد داخل البرج والأدراج النازلة حتى أسفل البركة، وفي الشمال تشمخ جبال حوران الوعرة المليئة بالشقوق والوديان، وفي الغرب تمتد النقرة الواسعة الساطعة، وفي الجنوب والشرق يشاهد المرء مخاريط جبلية صغيرة وبحر الحمم البركانية المتشكل من امتدادات الجبال البركانية، والصحراء الصخرية حرّة. وفي جميع الاتجاهات، وعلى مد النظر، يوجد على كل تل أو مرتفع أبراج وقرى ومدن.

وجدت في قلعة صلخد كمية كبيرة من الكتابات العربية بالخط النسخي، أورد منها فيما يلي تلك المتعلقة بإصلاح البرج واستكمال بنائه:

أمر بتجديد هذا البرج المبارك الأمير فخر الدين

الملكي في أيام الملك العادل أندكير[1] أيوب

---

(1) . . الملك العادل سيف الدين (أبو بكر بن) أيوب (حكم: 592 ـ 615 هـ = 1196 ـ 1218م.



وكتب على أحد الأبواب:

أمر بعمارة هذا البرج المبارك الأمير ابن رواحا
في أيام الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب
سنة إحدى وستماية.

وكتب على الجهة الخارجية الجنوبية للسور:

بسم الله الرحمن أمر بعمارة هذه القلعة المباركة
مولانا السلطان العالم العامل المجاهد المظفر
المنصور الملك الصالح فخر الدنيا والدين أيوب
ابن حمدان بن أبي بكر بن أيوب خليفة أمير المؤمنين
بتاريخ ستة من جمادى الأول سنة سبع وأربعين وستمائة
بولاية العبد الفقير إلى الله تعالى علي ابن الإمام أحمد
ابن صالح النجباني الصالحي.

كانت هذه الكتابة منحوتة بشكل جميل في حجارة السور المربعة في مكان غير بعيد من جسر مهدم الآن يمر فوق حفرة البرج. ومن المحتمل أن تكون هناك كتابات أخرى مطمورة تحت الركام المحيط بالسور.



يبدو أن تاريخ المدينة يعود إلى الوراء إلى أقدم الأزمنة. ويعتقد[1] بأن صلخد «سلخا» هي المدينة التي ورد ذكرها عدة مرات في التوراة كمدينة تقع على حدود باسان. إلا أن غالبية البيوت تعود إلى عهد الغساسنة. وهناك، كما ذكرنا، عقبان رومانية ممدودة الجناحين منقوشة على حجارة آثار البرج. أما الأسد الفارسي الذي تقول السيدة آنه بلنت[2] أنها وجدته في البرج فلا أتذكر أنني رأيته. وعلى أي فإن البرج جرى تعديل بنائه وتحصينه في عهد الحكام المملوكيين وأصبح قلعة منيعة. ومن المؤكد أن المدينة أيضاً شهدت بعض التطورات العمرانية كما تشهد على ذلك مئذنة الجامع الكبير الواقع في وسط المدينة التي بناها المملوكي السلطان عز الدين أيبك في عام 603 هـ (1225م)، والتي كتب عليها:

بسم الله الرحمن الرحيم

بإذن الله أمر بزفع الفقير عز الدين أيبك

ولد الملك المعظم عيسى ابن أبي بكر أيوب

في سنة ثلاث وستمئة

أجره وأثابه الله بولاية مملوكه منصور.

---

(1) انظر غوته، رحلات الدكتور آ. شتوبل إلى ديرة التلول وحوران 1882م، في مجلة جمعية فلسطين الألمانية، عام 1890م، الجزء 12، العدد 4، ص236.

(2) انظر بلنت، رحلة إلى نجد، الجزء الأول، ص55.



كانت الكتابة مسجلة بالخط النسخي على شريط رخامي يلتف حول برج المئذنة الثماني الأضلاع ومثبت على ارتفاع شاهق بحيث لم يكن من الممكن قراءتها إلا بصعوبة وبواسطة منظار مقرِّب. وكان فتسشتاين[1] قد قرأ السنة خطأً 630هـ بدلاً من 603هـ. إلا أن قول بوركهاردت[2] بأن المئذنة كان عمرها في أيامه مائتي عام فقط ليس صحيحاً. وكان بوركهاردت[3] قد عثر في باحة الجامع على حجر نقشت عليه زهرة زنبق، وعثر فتسشتاين[4] في قاعة كبيرة جنب الجامع على قوس مدبب[5]. بناء على ذلك واستناداً إلى الرواية التاريخية العربية المؤلفة من عدة أجزاء، والتي ألفها الديناري وتدور أحداثها في ذلك الزمان، يعتقد فتسشتاين أنه يستطيع الافتراض أن الصليبيين كانوا سادة صلخد فترة من الزمن على الرغم من أن كتب التاريخ الأوروبية كانت تقول العكس حتى الآن. ولكن قد تكون الزنبقة، التي كانت موجودة في الصور والرسومات الآشورية، من الأشياء التي استعملت للزخرفة في عهد الغساسنة.

عندما جاء بوركهاردت إلى صلخد وجدها خالية تماماً من

---

(1) نفس المصدر السابق، ص70.

(2) نفس المصدر السابق، ص100.

(3) نفس المصدر السابق، ص100.

(4) نفس المصدر السابق، ص70، 71.

(5) الفن العربي أو بالأحرى الفن الإسلامي عرف الأقواس المدببة أيضاً.



السكان؛ ولكن حسب أقواله كان فيها قبل خمسة عشر عاماً بعض العائلات المسيحية والإسلامية وعندما جاء فتسشتاين[1] وجد هناك بعض العائلات المسيحية والعائلات الدرزية لكنها كانت تستعد لمغادرة المدينة. أما آنه بلنت التي زارت المدينة في عام 1878م فقد ذكرت أنه قد أعيد استيطانها على يد الدروز. هذه المعلومات تعبر بشكل واضح عن حالة المد والجزر في الحركة السكانية في حوران. وأما أنا فقد وجدت في المدينة، إلى جانب العدد الكبير من الدروز، عدداً قليلاً من العائلات المسيحية.

تتابع الطريق الرومانية المذكورة، التي تصل بين صلخد وبصرى، مسيرها من صلخد باتجاه الجنوب الشرقي، وكانت تصل سابقاً، حسب رواية يبدو أنه مبالغ فيها، إلى البحر العربي. إلا أن بلنت وزوجها عبرا هذه الطريق على بعد مسيرة عدة أيام إلى الجنوب الشرقي من هنا، ولكن يرجح أنها لم تكن تصل بالحالة الجيدة المحافظة عليها حتى اليوم إلا إلى آخر مدن المنطقة البركانية التي كانت آنذاك مسكونة وظلت حتى الآن غير معروفة. فبعد وصول الطريق إلى طرف الحرة لا تعود تحتاج إلى شق أو تمهيد وإنما في أحسن الأحوال إلى أحجار تعليم في الأرض الصحراوية لتحديد الاتجاه. في أيام العصر الذهبي لتدمر كانت هذه السوق التجارية الرئيسية في وسط الصحراء مرتبطة مع النهايات الشرقية

---

(1) نفس المصدر السابق، ص66.



للطريق الرومانية المارة عبر منطقة الغساسنة. ولكن بعد سقوط تدمر كانت هناك طريق للقوافل كثيرة الاستعمال تنطلق من بصرى وتصل إلى أقصى الطرف الشمالي للخليج العربي[1]، وهذه الحقيقة هي التي تسببت في الحكاية القائلة بأن الطريق الرومانية كانت تصل من صلخد حتى مصب شط العرب. وهناك طريق رومانية أخرى كانت تربط صلخد مع ملاح ودير النصراني. وقد استعمل غراهام هذه الطريق وحسب رأيه كانت تصل حتى نمارة التي تابع فتسشتاين[2] انطلاقاً منها آثار طريق رومانية تصل إلى شقّا، بينما تابع غراهام[3] آثار طريق كهذه باتجاه تدمر؛ ومن نمارة كانت هناك طريق رومانية أخرى تتجه نحو الشمال وتصل إلى رحبة.

بالقرب من صلخد يوجد مزار يحمل اسم الخضر، أي القديس جرجس، وتجدر الإشارة إلى أنه ليس المزار الوحيد الذي يحمل اسم هذا القديس؛ فحتى بلاد الرافدين يوجد أماكن مرتبط اسمها باسم الخضر وتحظى بالتقديس من قبل المسيحيين والمسلمين على حد سواء. كما أن أسماء أيوب وموسىٰ وإليشاع وعيسىٰ تتكرر كثيراً في هذه المناطق وتطلق بشكل خاص على

---

(1) انظر أيضاً غراهام، نفس المصدر السابق، ص255؛ انظر أيضاً شبرنغر، الجغرافيا القديمة لبلاد العرب، برن 1875م، ص151. وانظر كتاب من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج، ج1، الفصل الثامن، ص323.

(2) نفس المصدر السابق، ص35؛ ص68 الملاحظة، ثم ص73.

(3) نفس المصدر السابق، 250، 255.



تلال بني عليها مزار ما، غالباً على شكل القبة المعروفة.

الملاحظة التي اعتقدت بلنت أنه يتعين عليها ذكرها بمناسبة وصفها لزيارتها لصلخد، وهي أن الأراضي تتخذ طابعاً أكثر ازدهاراً كلما ابتعد المرء عن مقر الإدارة التركية، هي استناداً إلى حالة المناطق التركية التي زرتها في آسيا، لم تعد صحيحة. بل بالعكس فإن المناطق التي استقر فيها الأتراك في الآونة الأخيرة وحرروها من ضغط البدو الرحل حققت تقدماً حاسماً نحو الظروف المنظمة وازدادت فيها مساحة الأراضي المزروعة.

عند مغادرتنا صلخد رافقنا عدد من رجال محمد الأطرش، من بينهم رجل درزي مشهور كبطل من أبطال الحرب كان يغيب في أحيان كثيرة أسابيع طويلة عن مكان إقامته لكي يقوم على الطريقة البدوية مع بعض رفاقه، أو بالتعاون مع الزبيد أي عربان الجبل والحرة المقيمين إلى الشرق من صلخد، بأعمال الغزو. وكان يتقاسم الغنائم مع سيده ومالك أرضه محمد الأطرش، أما حصته فيستعملها لشراء حلي فضية وملابس جميلة لزوجته الشابة الجميلة جداً والتي كان يقدمها للناس بكل افتخار.

جلبت لي مغادرتي صلخد إزعاجات تواجه عادة جميع الذين يسافرون مع خدم من العرب. فقد أعطيت أمراً بأن تتحرك القافلة في الصباح الباكر إلى سالي بينما أقوم أنا بزيارة البرج. ولكن



رغم ذلك وجدت خيامي بعد الظهر لم تزل منصوبة. وكان سبب التأخر خلاف بين خدمي كاد يتطور إلى معركة بالسكاكين لولا تدخلي. وعلى الرغم من أن سالي تبعد مسافة أربع ساعات بالنسبة لخيل سريع، ونحو سبع أو ثمان ساعات بالنسبة لقافلة كقافلتنا تسير على الطريق الوعرة، وعلى الرغم من تأخر الوقت أمرت بفك الخيام وشد الرحال وتحرك القافلة؛ وأنا نفسي سبقتها مسرعاً لأنني كنت أعلم أنني سأستطيع المبيت في بيت الشيخ الدرزي في سالي. وكان محمد الأطرش، الذي أثق به تماماً وأعتمد عليه، قد وعدني بأنني أستطيع الاعتماد على رجاله لإيصال القافلة بأمان إلى مقصدها؛ ولكن خطر سقوط أحد الحيوانات لم يكن من الممكن استبعاده كلياً. إلا أن القافلة وصلت أخيراً إلى سالي في الساعة الثالثة ليلاً دون وقوع أي حوادث. وكانت المسيرة قد اتجهت نحو الشمال الشرقي عبر الأراضي البركانية الخلابة. إلا أننا على عكس غراهام[1]، الذي كان قد مر من هنا في الربيع ووجد المنطقة ذات الشلالات الصغيرة الكثيرة مكسوة بحلة نباتية خضراء كثيفة، لم نجد سوى القليل من النباتات والجداول المائية كانت جميعها جافة. وغابات البلوط التي تحدث عنها غراهام وكذلك تل اللوز الذي ذكره يجب أن تكون واقعة إلى الغرب من هنا.

---

(1) نفس المصدر السابق، ص245.



كانت سالي[1] عند وصولي، ليس أكبر مدينة، وإنما أهم مدينة في شرقي حوران بأسره وذلك لأن الشيخ الدرزي محمد أفندي نصّار الواسع النفوذ يعيش هنا. كان يسكن في بناء غساني ضخم؛ حجرة كبيرة تتوسطها أعمدة عملاقة تشكل قاعة الاستقبال التي يوجد على جدرانها مقاعد حجرية عريضة مغطاة بالحصر والسجاجيد الفارسية النفيسة. وكانت الأبواب والشبابيك مصنوعة هنا أيضاً من الخشب. استقبلنا الشيخ محمد نصار استقبالاً حاراً على الرغم من أنه لم يكن مستعداً لزيارة في هذا الوقت المتأخر من الليل، وخاصة لزيارة رجل أوروبي؛ لاسيما أنه لم يأت إلى سالي قبلي إلا غراهام وفتسشتاين وشتوبل. خلال وقت قصير قدموا لنا مائدة حافلة ومدوا لنا للمبيت فرشات ومخدات على مقاعد القاعة. وقد وجدنا في الشيخ محمد نصار رجلاً متنوراً ومؤيداً للتقدم؛ وكان قد جلب من دمشق معلماً مسلماً لتعليم الأولاد.

---

(1) ورد اسم مدينة سالي في الكتب والخرائط مكتوباً بأشكال مختلفة. بوركهاردت (ص93 يكتبها زاله، برتون (الجزء الثاني، ص177) سايلا، غراهام (ص244) سالي، بورتر: ساله، فتسشتاين (ص80) سالا، وكيبرت يكتبها في خريطته أيضاً سالا. إلا أن اللفظ الشائع عموماً هو سالي مع مدّ المقطع الأول. وأنا أذكر ذلك لأنني كنت ألاقي صعوبة في أن يفهم الناس ما أقصد عندما كنت ألفظ أمامهم بعض الأسماء كما كتبها الرحالة السابقون.



نصبنا مخيمنا قرب الينابيع الرائعة التي تتميز بها سالي. والماء يجمع في أحواض حجرية كبيرة على بعد دقائق قليلة من القرية. وإلى جوار البلدة توجد حقول واسعة خصبة بعضها مزروع بالأشجار. وعند المساء كنا نشاهد النيران التي يوقدها ليلاً البدو الذين يقضون الصيف في منطقة قريبة.

لم يزل يوجد في سالي العديد من الآثار السبئية، ولكن جزءاً صغيراً منها فقط كان مسكوناً. وعلى أي حال فإن عدد السكان يبلغ عدة مئات من بينهم عدد قليل من العائلات المسيحية المقيمة هنا منذ أقدم الأزمان؛ كما أن تاجراً مسيحياً من دمشق كان قد استوطن في سالي. ومن الأشياء المهمة بعض بقايا المباني الواقعة على بعد دقائق قليلة جنوب وجنوب شرق المدينة والتي لم يذكرها حتى الآن أي من الرحالة الذين جاؤوا إلى هنا؛ وهي تعود حسب رأيي إلى بقايا مقبرة قديمة واسعة. ومما يؤيد ذلك ظهور جماجم وعظام بشرية تحت الأنقاض بلغت درجة شديدة من البياض الناصع وتحول بعضها إلى رماد تقريباً. وأفاد أهالي القرية بأن هذه العظام موجودة هناك منذ «قديم الزمان» وأنهم هم أنفسهم يدفنون موتاهم في مكان آخر؛ لكنهم لا يعرفون أي شيء عن منشأ هذه الأنقاض الفريدة الشكل. ومما كان واضحاً تماماً الأساسات والأجزاء السفلى من جدران مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها نحو 6 ـ 7 أمتار. كانت الجدران تحيط بغرفة داخلية مقسمة هي بدورها



بواسطة جدران خفيفة إلى عدة حجرات، غالباً ثمان حجرات، صغيرة وذلك بحيث إن الحجرات الصغيرة تشكل مثلثات متساوية تلتقي رؤوسها مع مركز المربع. لكن هذه الرؤوس كان كل منها مقطوع بحجرين تمر بينهما ممرات تؤدي من المثمّن الداخلي إلى الحجرات. ولم يكن لهذه المنشآت إلا مدخل واحد إلى جانب إحدى زوايا المربع. أما مادة البناء فكانت حجارة مربعة الشكل مقصوصة بعناية أو كتل حجرية غير مهندسة؛ وكانت هناك حجارة أخرى مكوّمة قرب البقايا الأثرية يستنتج منها أن هذه المباني كانت في السابق على شكل برج. كانت أبراج القبور. كثيرة إلى حد ما ولكن لم يبق منها إلا القليل فوق سطح الأرض. وقد يكون لها بعض القرابة مع تلك المباني في سردينيا التي وصفها بيرّو ـ شيبييه[1]، النورهاغن المستديرة. ولو أجري فحص لجماجم مستخرجة من هذه المدافن لتوصلنا ربما إلى معلومات أنتروبولوجية وتاريخية قيّمة. أما أنا شخصياً فلم أفعل ذلك لأنني لم أكن أريد جرح شعور مضيفيّ الذين يتوقف عليهم تنفيذ رحلتي في الحرة.

---

(1) بيرّو ـ شيبييه، تاريخ الفن القديم، الجزء الرابع، ص22.



فهرس الأماكن

أ

23

الصغرى 23، 24

خبيل الماليزي 23

نيا 74

لية 18

رفية 54

ستان 52

زيتون 92

كا 24، 27

ردام 15

ضول 120، 130

راليا 24، 26

نوسيا 26

حة 138

يا 9، 23، 28، 39، 52

يا الألمانية 53

أوروبا 23، 24، 63

إيران 23، 52

إيطاليا 11، 75

ب

البادية السورية 38، 40

باريس 14، 15، 84

البتراء 140

البحرين 37، 38، 41، 43، 47

البحيرا 53

بركة الحج 143

بريطانيا 24، 106

برلين 17

بصر الحريري 110، 111، 118، 119، 121، 129، 131، 140

بصرى إسكي شام 121

بعقلين 19، 69، 71

بعلبك 74
بغداد 27، 28، 37، 43، 44
بكفيّا 99
بلاد الرافدين 16، 37، 38
بلاد فارس 23
بلاد النيل 43
البلقان 23
بومباي 53، 54
بيت الدين 85، 90 98
بيت مري 101
بيروت 14، 15، 17، 19، 49، 73، 83، 84، 93، 94، 98، 100، 120، 124، 146

ت

ترانس أوكسانيا 23، 31
التركستانية 23
تركيا الأسيوية 23
تركيا الأوروبية 23
تل حديد 126
تل قليب 127

ج

جبال الصفا 127
جبال النصيرية 49
الجبل 93
الجبل الأسود 68
جبل حرمون 45، 48، 54، 70، 93، 115، 116، 132، 150
جبل حوران 110، 111
جبل الدروز 119
جبل عامل 83
جبل العلا 54
جبل قليب 127، 163
جبل لبنان 14، 40
جبل المقطم 46
جرمانة 54
جزر القمر 23
الجزيرة (شمال الرافدين) 68
جزيرة جربا التونسية 52
جزيرة كريت 130
جسر اليعقوبي 71
جنوب شبه الجزيرة العربية 64
جنوة 23

ح

حاصبيا 54، 71
54، 71، 77، 93، 101، 102
الحاكم 55
الحجاز 42
الحراك 117، 119، 120
الحرة 119، 127، 131
الحرمون 45، 107، 108
الحسا 42



حصن الحراك 117
حصن آلموت 48، 50
حلب 16، 48، 68
حوران 10، 11، 13، 15، 18، 54، 57، 60، 70 78، 79، 87، 91، 92، 98، 102، 104، 107، 108، 109، 110، 111، 112، 113، 114، 115، 116، 117، 118
الحيرة 16، 18، 70

خ

خراسان 31
الخرابة 153
الخلوة 60، 61
خبخ 53

د

دبيسة 140
دمشق 11، 16، 17، 19، 27، 54، 68، 70، 72، 73، 74، 78، 83، 84، 88، 92، 98، 103، 109، 111، 112، 113، 114، 116، 120، 122، 124، 125، 126، 130، 132، 136، 141، 145، 155
دور 138
دير زبير 153
دير علي 54
دير القمر 10، 77، 80، 90، 94، 97، 99، 101، 102، 103
دير المخلّص 85

ر

راشيّا 54، 93
الراين 63
الرحبة 125، 130
رودوس 113
روسيا 23
ريمة 139

ز

الزاب 16
زحلة 100، 101
زنجبار 23، 24، 53

س

الساحل الإيطالي 24
الساحل الشرقي من إفريقيا 23
الساحل الفرنسي 34
سالي 121، 130
سانت جان داكر 73، 87
سبأية 18



سجن 138

سردينيا 23

سجلماسة 40

السلمية 37

سورية 9، 10، 13، 14، 15، 16، 19، 28، 34، 37، 41، 42، 43، 45، 46، 47، 48، 49، 50، 51، 54، 63، 68، 69، 70، 71، 72، 73، 74، 75، 76، 80، 83، 85، 86، 87، 88، 89، 91، 92، 93، 95، 100، 103، 111، 133

السويداء 11، 79، 111، 112، 114، 115، 116، 119، 120، 121، 122، 123، 127، 138

ش

شبه الجزيرة الإسبانية 23

شبه الجزيرة العربية 23، 34، 38، 41

شمال إفريقيا 23

شهبا 70، 121، 127، 128، 131

شوف 19، 20، 69، 75، 77، 80، 103

الشويفات 18، 20، 99

ص

صحنايا 54

صفد 54، 84

صقلية 23

صلخد 116، 123، 146

صور 83

صيدا 72، 73، 75، 76، 94

الصين 23، 52، 57

ط

طرابلس 73، 74

ع

عبيه 59

العراق 18، 32، 38

عرامون 20

عري 128، 142، 154

عكا 54، 73، 78، 84

العمادية 18

عماطور 105

عمران 122، 123

عين داره 10، 78، 79، 101، 107

عيون 123، 124، 125



غ

غباغب 109

غينيا 23

ف

فينا 15

فارس 9، 23، 28، 29، 30، 32، 37، 40، 45، 47، 48

الفرات الأدنى 18

فرنسا 23، 96

فلسطين 15، 69

ق

القاهرة 28، 43، 45، 46

القدس 58

قراته 110، 119، 129

قراصة 138

القرم 23

قرية الشرفاء 110

قرية المنيطرة 163

قزوين 48

القسطنطينية 23، 74، 75، 90، 94

قشلة درارق 153

قصر بيت الدين 90

قصر طيران 161

قصر المختارة 81

قطنة 54

قلعة تدمر 72

قلعة حاصبيا 70

قلعة دمشق 120

قلعة السويداء 140

قلعة عكا 89

قلعة المزرعة 115، 121

القنوات (قناة) 122، 124، 127، 128، 146

القوقاز 23

القيروان 40

ك

كحيل 117، 120

كربلاء 53

كلّز (كليز) 80

كورسيكا 23

كوم الحصى 153

ل

اللاذقية 73

لبنان 7، 8، 11، 13، 14، 18، 19، 40، 49، 52، 54، 59، 63، 67، 68، 69، 70، 71، 72، 73، 74، 75، 76، 77، 78، 79، 80، 85، 93



اللجاة 92، 93، 125، 127، 128، 131، 135
لحسا (الحسا) 41
لديوئيزس 149
لندن 15، 24، 71

م

ماليزيا 27
المجيمر 153
المختارة 101، 107
مدينة بروك 82
مدينة النبي 58
مرو 31
مسقط 8
مصر 15، 28، 40، 43، 45، 47، 70
المعبد البريتالي 150
معرة النعمان 16
معن 19
المغرب 17، 19، 67، 157
مكة 42، 47، 53، 57، 61، 143
منزول 143
منطقة حلب 68
منطقة المردة 42، 52،
المهدية 40

ن

نجران 52، 53، 119، 129، 138
ناربون 23
نجد 163
نزب 93

هـ

هجر 57
الهند 23، 52، 53
هوبرت يانزن 24

و

وادي التيم 45، 52، 71
وادي ثالث 153
وادي الموت 18
ولغة 139

ي

اليمن 10، 18، 38، 52، 76، 78، 133



فهرس الأعلام

أ

آدم 35
آرفي 76
آغا خان 53
آغيب باشا 127
آل أبي اللمع (عائلة أبي اللمع) 65، 79، 86
آل أرسلان 18، 19، 20، 64، 65، 68، 79، 80، 82، 99
آل الأطرش 109، 120
آل تلحوق 65، 79
آل تنوخ 18، 64
آل جنبلاط (آل جمبلاط) 19، 65، 80، 81، 104، 107
آل حرفوش 74
آل حمدان 108، 109
آل شهاب 10، 65، 70، 71، 74، 77
آل عبد الملك 65، 79
آل علم الدين 18، 64
آل عماد 19، 65
آل عمرو 109
آل معن 18، 19، 65، 68، 71، 72
آل نصر 109
آل نكد 19
آنة بلنت 167، 169
ابن الصباح 47
ابن علي 20
ابن عم النبي محمد 25
ابن محمد علي 92
ابن ميمون 35، 37، 38، 42
ابن يونس 76
أبو إبراهيم إسماعيل 56
أبو جعفر المنصور 16، 17، 18



أبو شقرا 105
أبو صمد 105
أبو طالب عمرو 119، 120
أبو عبيدة الجراح 16
أبو الفداء 140، 160
أبو هرموش 78
أبو بكر بن أيوب 160، 165
أبو بكر شهاب 72
الأتراك 19، 51، 66، 72
أحمد 38
أحمد أبي اللمع 100
أحمد بن حيدر شهاب 85
أحمد بن ملحم 76، 77
أحمد الجزار 84
أحمد معن 77
أدهم باشا 118، 119، 126
أرسطو 55
أرسلان 9، 18، 64
أسرة ميديتشي 75
الأسقف توبيا 107
الأمبراطورية الرومانية 141
الأمير أبي الفضل مطوع 21
الأمير أبي اللمع 95
الأمير أبي المحامد عيسى 21
الأمير أحمد عباس أرسلان 99
الأمير أمين أرسلان 99
الأمير ارسلان (ابن الأمير مالك) 17، 18، 20
الأمير بدر الدين يوسف 21
الأمير بركات 20
الأمير بشير 86، 87، 88، 89، 90
الأمير بشير أبي اللمع 85، 100
الأمير بشير شهاب 85، 89، 98، 106، 107
الأمير بشير قاسم 97
الأمير بهاء الدين خليل 22
الأمير جمال الدين 22
الأمير ابن رواحا 166
الأمير حسن 22
الأمير الحارث 70
الأمير حمود 22
الأمير حيدر 22
الأمير حيدر اسماعيل أبي اللمع 99
الأمير زين الدين صالح أبي الجيش 22
الأمير سليمان 22
الأمير سيف الدين مفرج 22
الأمير سيف الدين يحيى 22
الأمير شجاع الدولة عمر 21
الأمير شكيب 20
الأمير صلاح الدين مفرج 22



الأمير عامر 21
الأمير عبد الله 60
الأمير عز الدولة تميم 21
الأمير عضد الدولة عليّ 21
الأمير علي 20
الأمير علي علم الدين اليمني 76
الأمير عماد الدين موسى 21
الأمير عون 16، 17، 20
الأمير فارس شهاب 78
الأمير فخر الدين 11، 22
الأمير قوام الدين عليّ عرف الدولة 21
الأمير مالك 21
الأمير محمد 22
الأمير مزجح 22
الأمير مسعود 21
الأمير مسعود الملقب بقحطان 20
الأمير مصطفى باشا أرسلان 20، 104، 125
الأمير معن 68، 71
الأمير المنذر 20
الأمير المنذر الملقب بالتنوخي المتوفى سنة 78. 20
الأمير منقذ 70، 71
الأمير ناهض الدين أبي العشائر بحتر 21
الأمير النعمان 20
الأمير نور الدين صالح 22
الأمير هاني 21
الأمير يحيى 22
الأمير يونس 22، 71
أمين أرسلان 100
أودنياتوس 140
أوديناتوس 140
أويجين بوجاد 15
أيوب 68
إبراهيم (نبي) 35، قائد 92، 93، 145
إبراهيم باشا 57، 89، 91، 92
إبراهيم باشا الأطرش 111، 112، 113، 135، 143، 144، 152، 153
إبراهيم القضماني 121
الإخشيديين 43
إدوارد ب. باركر 15
ادينغتون 150
إرنست لويه 15
إسماعيل 33، 36
إسماعيل أرسلان 80
إسماعيل الأطرش 102، 103
إسماعيل بن جعفر الصادق33، 53
اسماعيل جمبلاط 80، 106
الإسماعيلية 10، 33، 34، 35،



36، 37، 44، 45، 46، 48
الإسماعيليين 16، 33
إصطفان الدويهي 14، 97
الإنجيل 150
أيوب بن حمدان 166

ب

باتون 15، 94
باخوس 149
بارون دارمانياك 15
باكينغهام 136
بحتر بن علي 20
بدري بك 117
البدو 102
بدو نجد 41
البربر 39
بريه 87، 89، 93، 96
بشير85، 86، 92، 93، 95، 96
بشير جمبلاط (جنبلاط) 85، 95، 101
بشير شهاب 77، 78، 84، 85، 90، 91، 93
بشير شهاب قاسم 96
بشير محمد 72
بشير منوفلي بن أحمد 78
بطرس 35
بعمر رستم 123
بكنغهام 136
بلاو 70، 72، 74، 77، 83
بنو حنيفة 27
بنو شهاب 70
بنو العباس 28
بنو ربيعة 19، 68
بنيامين فون توديلا 14، 52
بهاء الدين 58
بورتر 136، 141، 142، 150، 153
بوركهاردت 15، 136، 139، 141، 150، 153، 155، 168
بوسترنزيس 141
بيبرس 28
بيترمان 12، 58

ت

تشارل نيبير 15
تشرتشل 12، 71، 96، 100، 102، 106، 167
تنوخ 18، 65، 68، 72
التنوخيون 69
توبيا 100
تورنبرغ 68، 70، 71، 72
توماس مور 31
تيمورلنك 139



ج

جرجس 142، 170
جرمانيكوس داسيكوس 141
الجزار 86
جعفر الصادق 33، 34
جمال الدين أرسلان 72
جمبلاط بك 122
الجمبلاطيون 81
جميل باشا 110، 111
الجنرال ديفور 103
الجنرال محمد باشا 92
جنكيزخان 35
جواد بك 131
جوبان 15
جورج روبنسون 15
جول فيريته 100
جبريل 30
جيرار نرفال 86

ح

الحاج حسن باشا 124
الحاكم 51، 52، 54
الحاكم بأمر الله 45
الحاكم (بأمر الله) أبو علي منصور 45
حامد أطرش 131
الحريري 136
الحسن 27، 33
حسن بن الصباح 47، 48
حسن العسكري 33
حسن القنوات 57
حسن الهجري 116، 152
الحسين 27، 33
حسين طربيه 116
الحشاشون10، 47، 48، 50، 52
حقي بك 130
حمدان 37، 38، 92، 109
حمزة 10، 46، 51، 56
حيدر شهاب 77، 78، 81، 82

خ

خالد بن الوليد 16، 70
خسرو باشا 115
خطّار بك عماد 102
الخليفة عمر 16
خليل عمرو 128، 130، 131
الخوجه 52، 53

د

الدرزي 45، 46، 51
الدروز 54، 55
الدروز الحوارنة 56
دروز حوران79، 91، 92، 109،



110، 111، 118
دروز قراته 119
دروز لبنان 41، 110
الدروز اللبنانيون 125
دوسارا (دوسر) 149
الدوق فرديناند الأول 75
دولاروكيه 14
دي ساسي 55، 56، 57، 60
دي غويه (خويه) 57
دي غوج 46
دي غوبيه 37

ر

رؤوف باشا 116
رافنشتاين 24
راي 86، 91
رباح 81
رستم باشا 120
رشيد الخوري الشرتوني 17
روبنسون 85
روجيه 74
الرولة 110
ريتر 73، 85، 104، 141
ريشارد إدوار 15

ز

زاله 173
زغابة 116
الزنادقة 31، 32
زنوبيا 140
زيتسن 141، 154
زيوس 142

س

سالم أبو أرسلان 131
الساسافيون 31
ست غويارد 47
الست نايفة 102
ستان غوريار 33
سطّام بن شعلان 125
سعد الدين 72
سعيد 39
سعيد بك 102
سعيد بك جمبلاط 101
السلطان عبد الحميد 27
السلطان نور الدين 70
سلمان الفارسي 55
السلمية 40
سليم الأول 28، 72
سليمان باشا 93
سليمان خالد 120
سليمان العدني 49
سوسان 141
سيد العلم 56



سيف الدين 71
السنة 43، 47
سيلفستر دي ساسي 12، 41، 57

ش

شبرونر ـ منكه 23
شبلي 113، 114، 145
شبلي الأطرش 112، 113، 114، 115، 119، 153
شبلي بك تلحوق 111
شتوبل 150، 167
شدياق 20، 65، 69، 70، 71، 72، 76، 78، 80
الشراكسة 115
الشركس 115، 121
الشركسي 131
الشرتوني 14
شريف باشا 92
الشقراوي 105
شكيب أفندي 99
شهاب 71
الشهابيون 71
شوقي بك 130
الشيخ أبو خير 122
الشيخ اسماعيل الهزل 125
شيخ الجبل 47، 49، 50، 53
الشيخ جمبلاط 80
الشيخ حسن الهجري 120، 152
الشيخ حمدان 92
الشيخ سعد 115، 117
الشيخ محمد نصار 112
الشيخ مسكين 125
شيعة27، 28، 33، 36، 43، 47

ص

صدر الدين 53
صلاح الدين 70
الصليبيون 19، 20
الصمدي 103
الصين 57

ض

ضاهر العمر 83، 84

ط

طاهر باشا 126، 127
طغتكين بن عبد الله 68
طنوس الشدياق 14

ظ

الظاهر بيبرس 51

ع

عامر شهاب 71
عباس 89



عباس الأول 162

العباسيون 9، 16، 18، 27، 29، 30، 31

عبد الله معن 71

عبد الله أفندي 122

عبد الله باشا 88، 89، 130

عبد الله بن ميمون 34، 36

عبد الرحمن المصري 158

عبيد الله 38، 40، 42، 44

عبيد الله المهدي 39

عثمان 72

عثمان باشا 102، 116

عثمان نوري باشا 117، 124

عرب الجنوب 68

عرب الشمال 68

عزيز 43، 44

عطا المقنّع 31

العقال 59، 60

عقيل بن أبي طالب 38، 39

علم الدين 18، 64، 73

العلويون 18، 28

علي بك 83، 84

علي بك عماد 109

علي بن أبي طالب 24، 27، 28، 30، 31، 33، 35، 36، 38، 39

علي جمبلاط 82، 85

علي جنبلاط 81

علي الرضا 33

علي زين العابدين 33

علي شهاب 75، 77، 85

علي معن 71

علي الهادي 33

عمر باشا 98، 99، 126

عمر بك114، 115، 120، 128، 152

عمر بن الخطاب 16، 157

عمر رشدي باشا 124

عيد أبي اللمع 104

عيسى المسيح 35، 56

غ

غ. فان فلوتن 32

غامّو 142

غراهام 136، 141، 150، 152

غوتفريدفون بوبيون 75

غوته 14، 150

ف

فؤاد باشا 103

فاطمة ابنة الرسول 27، 28، 30، 33، 43

الفاطمي 43



فان برشم 47
فخر الدين 10، 12، 14، 52، 69، 72، 75
فخر الدين الثاني الكبير 73
فخر الدين الكبير 72
فرانتس آكيولي 15
فرانسوا لينورمان 15
فرديناند برنييه 15
الفرس 28، 30
الفرنجة 19، 69، 71
فريدريك مارتينس 24
الفشنو 53
فلايشر 70، 140
فليكس بيرغيريت 50
فليلس منغان 15
فوستنفلد12، 39، 43، 44، 45، 52، 69، 72، 74
فوغويه 140، 141، 150، 160
فولف 49، 55
فون آرفيو 14
ف.ي. روجيه 14
فيريتّه 102
فيشمان 24
فيليبوليس القديمة 70

ق

قاسم 85
قاسم شهاب 77
قاضي بك أبي اللمع 104
قبرصلي باشا 109
قبلان القاضي 81
قبلان القاضي التنوخي 81
قبيلة المتفق 46
القرامطة 9، 10، 37، 41
قرقماز 73، 76
قنطورة 71
قنطورة (الكونت دوريا) 71

ك

كليرمون 141
كليمنت هيوارت 49
كنجر 94
كوجك أحمد باشا 75
كولد علي 110

ل

ل. منكه 22
لابات 14
لالّا روخ 31
لايزيغ 12، 14
اللخميون 16، 18، 19
لو كروي 84
اللورد دافرينّ 107
لوي دو بانديكور 15



م

ماركو بولو 50
ماريتي 14، 75، 76، 78، 83
ماكسيميانوس 142
مالك أفندي 130
المتاولة 52، 69، 74، 82، 93، 94، 95، 102
المتوكل 28
محمد آغا 123
محمد الباقر 33
محمد بن اسماعيل 35
محمد بن وهب 56
محمد الجواد 33
محمد علي15، 87، 88 93، 94
محمد المنتظر 33
محمد نصّار 113، 121، 124، 127، 129، 130، 132
محمود أبو هرموش 78
مدحت باشا 110، 111
مراد أبي اللمع 104
المردة 17، 19، 40
المستنصر 28، 44، 47
مستنفلد 44، 45
م.سي. دفريموري 47
المسيحيون 24
المشير طاهر باشا 125
مصطفى أرسلان 108، 145
معاوية بن أبي سفيان 27
المعز 43، 44
معلم الحشاشين الكبير في زمن صلاح الدين 47
المعنيون 69، 70
مفارز 112
مقداد الأسود 56
ملحم 72
ملحم الثاني 76، 82
ملحم شهاب 74، 78، 85
الملك امرؤ القيس 20
الملك المنذر 20
الملك المنذر اللخمي 20
الملك المنذر المغرور. 20
الملك النعمان أبي قابوس 20
ممدوح باشا 121، 127، 128، 132
المنذر بن النعمان 16
المنصور 30، 42، 78، 83
منصور بك 112
منقذ شهاب 71
المهدي 32، 33
الموارنة 69
موسى 35
موسى شهاب 77



موسى الكاظم 33
مولاي بهاء الدين 56
مولاي السابق 57
مولاي عقل 56، 59
مولاي كلمة 56
مولاي النفس 56
مولر 17، 23، 25، 27، 30، 31، 34، 37، 38، 44، 45، 48، 50
موله 18
موندريل 73
ميشائيل غ. مولهال 24

ن

نابليون 87
ناصيف بك أبو نكد 97
النبي محمد 17، 23، 25، 27، 32، 34، 35، 36، 38، 39، 41، 42، 47، 56، 74، 161
نجيب 145
نرفا تراجانوس سيزار 141
نصوحي بك 124، 126
النصيريون 49، 52
النعمان بن عمرو بن المنذر 140
نعمان جمبلاط 98، 106
نعوم باشا 125
النكد 19
نوح 35
نور الدين 70
نيبور 15، 83

هـ

هرقل 142
هولاكو خان 35، 50

و

وادينغتون 137، 150
الوهابيون 42

ي

ي. فون هامّر 47
يانزن 24
يزبكي 82
يوحنا المعمدان 35
يوراشيك 24
يوسف 72
يوسف باشا زيّا الخالدي 115
يوسف زيّا 115
يونس (ابن الأمير معن) 71
يونس شهاب 72، 78، 87




مكتبة
الفكر الجديد

هذا الكتاب

جزء من دراسة علمية ميدانية بحثية قام بها المستشرق و الانثوبولجي و الاثاري الالماني البارون اوبنهايم بين عام ١٨٩٣ و١٨٩٤ . صدرت هذه الدراسة بجزئين تحت عنوان من البحر المتوسط الى الخليج .

الجزء الاول من الكتاب تناول سورية ولبنان حيث قدّم لنا اوبنهايم دراسات مهمة تاريخية و سياسية عن الاقليات الدينية والمذهبية والعرقية وكذلك عن القبائل والعشائر في هذه المنطقة ،اما الجزء الثاني فتناول العراق و الجزيرة العربية الى مسقط.

يقول المؤلف: يعود اصل الدروز الحالي الى اجزاء من قبائل عربية جاءت في القرن الثاني الهجري الى لبنان الذي كان آنذاك آراميا مسيحياً وانضمت إليهم فيما بعد بعض العناصر التركية و الكردية ولكن هؤلاء امتصهم العنصر العربي الغالب .



IS BN 1900- 700- 32- 8



دار الوراق للنشر

Alwarrak Publishing Ltd.

U.K.

26 Eastfields Road
London W3 0AD - UK
Tel.: 0044 208 723 2775
Fax: 0044 208 723 2775

LEBANON
Hamra St. Rasamni Bldg.
Tel.: 961 1 750054
Fax: 961 1 750053
P.O.Box: 113-5182
Beirut - Lebanon

www.alwarrakbooks.com
warraklondon@hotmail.com